كفايته سبحانه لأوليائه وغوثه لعباده وتفريجه الكربات عن خلقه

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾.

ومجيء قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾.

بعد ذكر التقوى والتوكل؛ فيه سر لطيف ومقصد شريف، فمن اتقّى ربه وتوكل عليه، فلا يتباطأ عون الله، ولا ييأس من روحه، ولا يقنط من رحمته، ولا يقطع أمله من الفرج، فإنه إذا اتقى وتوكل فسوف يأتيه الفرج لا محالة، وسوف يجد الخروج من الضيق بلا شك، لكن للأمور أوقات، وللمقدور عمر؛ لا بد أن يقضيه حتى يصل، وكل شيء عند الله بأجل مسمى، فما على العامل إلا العمل حتى يحين وقت الثواب، وما على الداعي إلا أن يدعو حتى يحصل له مراده، أو خير من مراده، ولا يقول: دعوت ثم دعوت فلم يستجب لي، بل يطمئن إلى حسن اختيار ربه، وجميل صنيعه، وجليل حكمته، وسعة علمه، وكمال قدرته، وتمام رحمته.

فالله جعل لكل شيء قدراً، له زمن لا يتجاوزه، ووقت لا يتخطاه، فإذا جاء موعد المقدور فلا يستأخر عن وقته ساعة ولا يستقدم. للكربة وقت ثم تزول، ولها زمن ثم تحول؛ لأن الله قد جعل لكل شيء قدراً.

للمرض أيام معدودة، وليال محسوبة، ثم ينكشف، لأن الله جعل لكل شيء قدرا، للهم ساعات، وللغم أوقات، ثم ينجلي بسرور لاحق، وفجر صادق لأن الله قد جعل لك شيء قدرا.

فما عليك إلا أن تعمل، وتحرص على الخير، وتبذل الوسع، وتخلص السعي، وتصحح العمل، وتحقق العبودية، ثم اترك ثمرات الأعمال، ونتائج الأحوال لذي العزة والجلال.

لا تستعجل حصول المرغوب، وإزاحة المرهوب، فالأمر ليس إليك بل إلى من جعل لكل شيء قدرا.

إن الإيمان بأعمار المصائب سلوة للمنكوبين، وإن التصديق بآجال المحن عزاء للمصابين.

إن للمكروه زمناً لا يتعدّاه أبداً، فتحيلك في إزالته قبل حينه ضرب من الهوس، وفن من فنون الوسوسة، لأن مهمتك كيف يزول؟ لا متى يزول؟ فمن حرص على كيفية زواله دعا وأخلص، وجد واجتهد، واتقى وصبر، وتوكل وأناب، وفوض الأمر إلى الملك الوهاب، ومن تعلق قلبه بزمن الزوال، ومتى يرتحل المكروه؟! استبعد الفرج، واستبطأ الروح، وصاحبه الإحباط، ورافقه الفشل، وسامره اليأس، وحادثه القنوط، فلا يزال في أودية الاضطراب، وطرق السخط والندم، والحسرة واللوم، وتمزيق القلب بسياط القلق، فقلبه فزع، وذهنه شارد، وحاله كاسف، وباله مشتت، وباطنه ناقم، ثائر معترض شاك، فلو أخلص في الدعاء، وانتظر الفرج في وقته، والنصر في حينه، وحسن العاقبة في زمانها، وجميل الصنع في ساعته، وإدراك المطلوب في موعده، لو فعل ذلك كله لأدرك سعادة الدارين، فيا سعادة من إذا أذنب استغفر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أنعم عليه شكر، ولحصل على أعظم الأجر، وانشراح الصدر، ورفعة الذكر، فالله هو المقدر، وقد جعل لكل شيء قدرا.

لا تثمر الشجرة حتى يحين وقتها، ولا تبزغ الشمس حتى يحل ميقاتها، ولا يطل القمر حتى يحصل زمن إطلاله، ولا تضع الحامل حملها؛ ولا تفطم ولدها إلا بأجل، ولا يندمل الجرح، ولا يبرأ الموعوك، ولا تعود الضالة إلا بعدما يمر بالكل العمر المقدَّر والأجل المؤقت.

فاعلم أنه لا يعني بذل الأسباب حصول المطلوب في الوقت المقترح، والزمن المختار، بل في الساعة التي كتبها الله وحده، فإنه غالب على أمره، فعال لما يريد، كل شيء عنده بمقدار، وكل شيء بأجل مسمى، وقد جعل لكل شيء قدرا.

وهو المقدم والمؤخر، أحاط بكل شيء علما، ووسع كل شيء رحمة وعلما، ووسع الكائنات لطفا وحلما، فقد أتى أمره فلا يستعجل، وقرب فرجه الأجمل، له الحكم وإليه ترجعون، فلكل أجل كتاب، ولكل شيء حد، ولكل بلاء زمان، ولكل حدث عمر، فسبحان المدبر، جل في علاه، لا إله إلا هو.

من معاني التوحيد نفي النقص عن الخالق والاستغفار من نقص المخلوق ولذلك قرن بينهما في التنزيل

يقرن كثيراً في القرآن بين التوحيد والاستغفار، لأن فيهما نفي النقص عن الخالق، والاعتذار من نقص المخلوق.

فقوله سبحانه: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ اعتراف وإقرار بوحدانيته عز وجل، وتنزيهه عن النقائص والعيوب، ثم الاعتراف بظلم العبد نفسه بالخطايا والذنوب، والاستغفار طلب، وإنما يحصل الطلب بين يدي الثناء والمدح، وأعظم مطلوب هو الله عز وجل، وأعظم ما يمدح به التوحيد الخالص، وذكر وحدانيته في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فحسن تقديم هذا الثناء العظيم.

وقد ورد في الحديث: «**أفضل الدعاء لا إله إلا الله**».

فسئل بعضهم كيف جعلها دعاءً وهي إثبات وتقرير؟ فقال: إن من أثنى عليك فقد تعرض لك بالسؤال كما قال أمية بن أبي الصلت:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني

حباؤك إن شيمتك الحباء

وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ﴾.

فبدأ بالعلم قبل القول والعمل، وقدم التوحيد الذي هو أصل الأصول، وأمر بالاستغفار الذي هو سبب لحصول المحبوب، ودفع المرهوب.

فمن عرف سر هاتين الكلمتين: لا إله إلا الله، واستغفر الله، أحبهما وأكثر منهما، وتعلق بهما، وأدمن تكرارهما، وتفقه في معانيهما، وقضى وقته بين اعتراف بالجميل، وإقرار بالمعروف لصاحبه تبارك وتعالى، وثناء عليه، وإيمان بوحدانيته، والاعتراف بظلم النفس وقلة البضاعة، ورداءة المحصول، واتهام النية، والانكسار عند تذكر الخطية، ومقت الذات غاية المقت، ولام النفس غاية اللوم على ما فرطت في جنب الله، وأكثرت من مخالفة أوامر الله، وعندها يحصل عفو الله، ومغفرته ورضوانه.

فما هطلت سحائب الرضوان إلا برضا الرحمن، والانكسار بين يديه، وتفويض الأمر إليه، والتوكل عليه.

فوجب على العبد غاية الوجوب تجريد التوحيد بالتوبة والاستغفار.

فما أسعد حال من دوام على لا إله إلا الله، واستغفر الله، فغاية الكمال لرب العزة والجلال إفراده بالوحدانية، وغاية كمال العبد التبرؤ من الحول والقوة، والتطهر من الذنوب والسيئات.

وانظر كيف جمع الله في كتابه بين التوحيد والاستغفار فقال: ﴿**فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ**﴾ فالاستقامة إليه توحيده في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ونفي الند والضد والشريك، والكفو عنه والاستغفار طلب الصفح عن الخطيئة والاعتذار من المخالفة، والتبرؤ من الذنب، والعفو عما سلف، والتجاوز عما حصل، ولذلك جمع بينهما الرسول ﷺ في سيد الاستغفار فقال: «**اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي؛ فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**».

وكأنك حينما تجمع التوحيد والاستغفار تقول: أنت يا الله الواحد الأحد الغني القوي الحي القيوم ذو الجلال والإكرام، والعزة التي لا تُرام، والركن الذي لا يُضام، ليس لك في الملك شريك، ولا نعلم لك سميا، وليس لك كفؤ ولا مشابهة، ولا إله آخر ولا رب سواك، ولا خالق إلا أنت، وليس لنا من دونك ولي ولا شفيع ولا ناصر، ولا كافي، ولا محيي ولا مميت، ولا مطعم ولا رازق، وأنا العبد الفقير المذنب المخطئ المقصِّر الضعيف العاجز، قليل الحيلة، كثير الإساءة، عظيم الجرم، ناقص العلم، الظالم لنفسي، المسيء في عملي المسرف في معصيتي.

وجوب ذكره سبحانه وشكره ودوام تقديسه وتسبيحه وتكبيره وتحميده وأن ذكره أفضل الأعمال وأشرف الخصال، وأحسن الأقوال

ذكر الله سبحانه وتعالى شفاء للصدور من مرض الشك، ودواء للقلب من داء القلق، وعلاج للضمير من الخواء، وحماية للنفس من الانحراف، فهو البلسم المجرب، والغذاء المبارك، والدواء النافع، والطعام الطيب.

ذكر الله أنيس الوحيد في الخلوة، وعزاء المصاب عن كل فقيد، وخلف المنكوب عن كل نفيس، فهو الاطمئنان ساعة الفزع، والسكون وقت الهلع، والثبات زمن الفتنة.

ذكر الله المال الذي لا تحميه الرجال، والكنز الذي لا يخاف عليه النهب، والذخيرة التي لا تصل إليه يد، فهو عز لأنه تذكير بالعزيز، وهو غناء لأنه تسبيح للغني، وقوة لأنه تنويه باسم القوي، ذكر الله غنى لمن افتقر، وزيادة لمن شكر، وعدة لمن صبر، فالفقير الذاكر عنده القناطير المقنطرة من اليقين وحسن الظن والثقة بالوعد، والاطمئنان إلى حسن المصير، وكرم العاقبة، وراحة الخاطر، والغني الذاكر يحمل أوسمة الشكر، ويتوج بأكاليل الحمد، فهو في سلم القبول راقٍ، وفي مدارج العبودية صاعد، وفي سماء الوفاء والصدق مجنح، والصابر الذاكر في جنة من الرضا، وفي نعمة الإيمان بالمقدور، يلمح الأجر، وانحطاط الوزر، وقرب الفرج، وعبودية التسليم، وجلالة مقام الانقياد للقضاء، فالذكر غنى وثروة وعدة وذخيرة وقوة.

ذكر الله عز وجل من أجله أقيمت الشعائر، ونزلت الشرائع، وفرضت الصلاة، وسنت مواسم الخير، ومناسبات الملة، وأعياد الدين.

ذكر الله أسهل ما يقال، وأخف ما يعمل، وأيسر ما يحمل، وأجمل ما يفعل، ولكنه أكبر شيء في الميزان، وأحب شيء إلى الرحمن، وأجل سعي للإنسان، فلا يوازيه عمل، ولا يجاريه كد، ولا يضارعه خير، ولا يسبقه مجاهد، سبق المفردون، الذاكرون الله كثيرا والذاكرات.

وذكر الله عز وجل صدقة بلا مال، وجهاد بلا قتال، ومرابطة بلا انتقال، ومجاهدة بلا مشقة، وتضحية بلا عسر.

ذكر الله استغناء عن الطمع إلى الناس، والحاجة إلى الخلق، والتذلل للأكابر، والافتقار إلى البشر، وانتظار ما في أيدي البخلاء، والتملق للأدعياء.

ذكر الله أمان لمن في الأرض، وميثاق أكيد لحسن رعاية العزيز الحميد، ووسيلة عظمى لألطاف الكريم المنان، وطريقة مثلى للوصول إلى أسمى غايات العبودية، والطاعة والانقياد.

وهو آية على الصدق، وبرهان على البر، ودليل على الفضل، وعلامة على الاصطفاء، وسمة للأولياء.

فالذاكر ولي حبيب، قريب إلى الوالي السميع القريب المجيب.

فالله عز وجل أمرنا أن نذكره، وأوجب علينا أن نشكره، وأخبرنا أن الكائنات تسبح بحمده، وأن الموجودات مذعنة له، قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾، وقال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

وقال: ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ ﴾.

وقال: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾.

وقال: ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾.

وقال: ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾.

وقال: ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾.

وقال: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾.

وقال: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾.

وقال: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

وقال ﷺ في الحث على ذكره والحض على تسبيحه «**سيروا هذا جُمْدان، سبق المفردون الذاكرون الله كثيراً والذاكرات**».

وقال: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم؛ فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟** قالوا: بلى يا رسول الله. قال: **ذكر الله**».

وقال: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت**»، وأوصى رجلاً فقال له: «**لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله**».

وقال «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**».

وقال: «**لأن أقول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس**».

وقال: «**من قال سبحان الله العظيم وبحمده، غرست له نخلة في الجنة**».

وقال: «**أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا يضرك بأيهن بدأت**».

وقال: «**من قال سبحان الله وبحمده، مئة مرة، غفرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر**».

وقال: «**من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، مئة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مئة حسنة، ومحيت عنه مئة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به، إلا أحد عمل أكثر من ذلك**».

وقال لأحد أصحابه: «**ألا أدلك على كلمة من كنز الجنة تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله**» .

وقال: «**لقيت إبراهيم ﷺ ليلة أُسري بي فقال: يا محمد أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**».

وفي الحديث القدسي يقول سبحانه: «**من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم**».

وقال بعض العارفين: يا أنيس من ذكره، ويا مزيد من شكره. وقال بعضهم: لا آنس الله من لم يأنس به في خلوته.

وقيل لبعضهم: ألا تستوحش وأنت وحدك؟ قال: كيف أستوحش، وهو يقول: أنا جليس من ذكرني.

وقال آخر:

إذا مـــــرضنـا تداوينـا بـذكـــــركم

ونتـــرك الذكـــر أحـــيـــاناً فننتكس

وقالوا: ذكر الله شفاء ودواء، وذكر الناس مرض وداء.

ومن داوم على ذكره عز وجل قوي بلا عشيرة، واغتنى بلا مال، وشرف بلا جاه، وعز بلا نسب، وأفلح في الدنيا والآخرة.

وقال بعض الأولياء: عجباً لمن عرفه ثم نسيه، وذكره ثم غفل عنه.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ هو ذاكر الله في كل زمان ومكان. وذكره سبحانه طرد الخنّاس، وأمان من الوسواس، وغنى عن الناس.

وأسعد الناس الذاكر لله، فبالذكر تسعد نفسه وأهله وإخوانه وجلاسه، وبالجلوس معه تنزل الرحمة، وتحل البركة، ويقع الأُنس، ويحصل الخير، ويعظم الأجر، ويطرد الشيطان، ويرضى الرحمن، وتحف الملائكة، ويذكر الله أهل المجلس فيمن عنده، ويحفظ العمر، ويغفر الذنب، ويدر الرزق ، ويسهل ما صعب، وييسر ما عسر، ويحصل بذكر الله تأليف القلوب، واجتماع الرأي والهداية، والسداد لكل عمل صالح.

فأسعد الناس أذكرهم لربه، وأطوعهم لخالقه، وأكثرهم تسبيحاً وتكبيراً وتحميداً وتهليلاً له، فمن اشتغل بالله فرَّغ قلبه لطاعته، وهيأ له من يخدمه، ومن اشتغل بغيره شغله بنفسه، وملأ قلبه شغلاً، وفرق شمله، وأدام فقره،

وضيع عليه عمره، وصعب عليه حاجته، وعسر عليه مطلوبه، وأغلق دونه أبواب الخير، وحرمه مواسم الرحمات، ومنعه لطائف النفحات.

ثم إنه لا يصلح شيء في العالم تشتغل به إلا الله عز وجل، لأنه صاحب الطول والفضل والنعمة والإحسان، فهو مستحق للعبودية الصادقة، والطاعة الدائمة، والذكر الحسن، والشكر الكثير، جل في علاه.

عظمة (لا إله إلا الله)
وكبير قدرها وثقل وزنها وجلالة منزلتها وسمو مكانتها

فهي أصدق العبارات، وأجمل الكلمات، وأفضل الحديث، وأجل الحسنات، إذا قال العبد في الأرض: **لا إله إلا الله**، قال الله في السماء: صدق عبدي، لا إله إلا أنا، هي فطرة الله التي فطر الناس عليها، وميثاقه الذي أخذه من الناس، ودعوة رسله التي بعثوا بها، ومنطوق كتبه التي أنزلها، من أجلها قام سوق الجنة وسوق النار، وبسببها مد الصراط، وتطايرت الصحف، ووضع الميزان، وسل سيف الملة، ورفع علم الجهاد، وسقطت جماجم الأبطال، وطارت أرواح الشهداء، ولذ طعم الموت، وأمهرت المنايا نفوس المقاتلين.

لا إله إلا الله تزن السموات والأرضين فترجح، لو كانت في حلقة حديد مبهمة لفصمتها، لو دخلت صخرة ملساء لفجرتها، لو هبطت على جبل لتصدع، ولو نزلت على صخر لتفجع، خير ما قال الأحياء، وأحسن ما ذهب به الأموات، من صدق في قولها نجا وأفلح، وسعد وأنجح، بها يعصم دمه ويُصان عرضه، ويحفظ ماله، ويهنأ عيشه، ما فهمها فرعون فدس أنفه في الطين، وما نطقها أبو جهل فوضع في القليب، وكفر بها قارون فخسف به، هي البداية والنهاية، ورأس الأمر، ورأس القضية، وقصة الحياة، وحديث العمر، لها في القلوب هيبة، وفي النفوس جلالة، تفتح بها أبواب علام الغيوب، وتغفر بها الذنوب، وتلين عند ذكرها القلوب، بها تدك حصون الأعداء، ويهد جدار البغاة، وتسحق فلول المارقين، تحاج عن صاحبها، تدافع عن قائلها، تذب عن روادها، تشفع لأنصارها، هي العروة الوثقى، والدرجة الرفيعة، والكلمة

الطيبة، شافية كافية، جامعة مانعة، عامة كاملة. يبدأ بها الأمر وينتهي، وتفتح بها المسائل وتختتم.

على صوت **لا إله إلا الله**، تقدم أبطال بدر يصدقون الله ما وعدوه، وعلى جلجلة **لا إله إلا الله** سالت دماء الشهداء في أحد لأنهم عليها بايعوا المعصوم وعاهدوه، ولِنصرتها اغتيل يحيى، وأهدر دم زكريا، وسعرت النار للخليل، وحورب الكليم.

على زجل **لا إله إلا الله** ضرج حمزة بدمه، وقطعت يدا جعفر، واحتز رأس مصعب، ﴿**فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ**﴾ صَدَّقها أبو بكر فتوج بتاج الصدق، فلا يعرف في العالم إلا بالصديق ﴿**وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾ وكذب بها مسليمة فخطم بوسم الكذاب، فلا يعرف في الخلق إلا بالكذب ﴿**فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**﴾ اهتز لها قلب عمر فاهتزت الدنيا بيقينه، وأنصتت المعمورة لصوته، وذاقها عثمان فأنفق من أجلها طارفه وتليده، وتعلمها علي فلبس قميص **يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله**، بآثارها غسل حنظلة بين السماء والأرض ولأجلها قال أنس بن النضر: إني لأجد ريح الجنة من دون أحد، ولها أنشد جعفر: يا حبذا الجنة.. **لا إله إلا الله** نافية مثبتة، نافية للأنداد والأضداد والشركاء والدخلاء والطواغيت والأصنام والأوثان، مثبتة الألوهية للخالق الحق، الحي القيوم، مثبتة له العبودية والعظمة والتفرد والكمال والجمال والجلال، **لا إله إلا الله** تذهب الهموم، وتزيل الغموم، وتحرق الخطايا، وتكفر السيئات، وترضي الرب، وتغضب الشيطان.

الله أكبر كل هم ينجلي

عن قلب كل مكبر ومهلل

لا إله إلا الله وثيقة ربانية، هبط بها جبريل إلى الأرض، وحملها موسى إلى فرعون، وأعلنها محمد ﷺ من على الصفا ونادت ببنودها الأنبياء، ودافع عن مثلها المصلحون، قلها إذا أصبحت ليكن يومك غرة في الأيام ونهارك سعيداً على الدوام، يسهل فيه عملك، ويكثر فيه رزقك، وقلها إذا أمسيت ليكن ليلك أمناً وأماناً، وروحاً وريحاناً، تحفظ فيه من الطوارق، وتصان فيه من الحوادث.

إذا رأيت السماء المرفوعة بلا عمد، وقد مدت أجنحتها على الأرض لا يمسكها إلا الله، فقل: **لا إله إلا الله**.

وإذا رأيت الجبال هائمة في الخيال تمد أعناقها بلا مبالاة، وتغوص في الأعماق في جبروت فقل: **لا إله إلا الله**.

إذا أدبر الزمان، وجار السلطان، وجفاك الإخوان، فقل: **لا إله إلا الله**، فإذا الطمأنينة والرضى والأمن والأمان.

إذا احلولك الظلام، وتغيرت الأيام، وتضاعفت الأسقام، فقل: **لا إله إلا الله**، فإذا النور والسعادة والأنس.

إذا اشتد الخطب، وعظم الكرب، وجثم الأمر الصعب، فقل: **لا إله إلا الله**، فإذا الفرج والنصر والفتح.

أيها المعذبون في الأرض، المجلودون بسياط الجور، المحبوسون في زنزانة العدوان، قولوا: **لا إله إلا الله**، لتذوقوا طعم الحرية، وتعرفوا معنى الإنسانية وتدركوا سر الحياة.

﴿ **أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾.

أيها الجائعون الباحثون عن فتات الخبز على أرصفة اليأس، المنطرحون على عتبة الحرمان، المتقلبون على جمر الأسى، قولوا: **لا إله إلا الله**، لتجدوا عوضاً عن الخيبة، وملاذاً آمناً من الخوف ﴿**فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾.

أيها الباكون من أوجاع المصائب، الساهرون من جراح النوائب، قولوا: **لا إله إلا الله**.

أفي الله شك أيها لملاحدة الجبناء حتى تصعب على ألسنتكم الآثمة أن تقول: **لا إله إلا الله**.

أفي الله شك أيتها الشيوعية الحمراء حتى تحجبي عن أتباعك أنوار **لا إله إلا الله** بعصائب الخزي، وحواجز الافتراء، وقضبان البهتان والزور؟!

لكن **لا إله إلا الله** اقتحمت معاقل الزمان الآن لتلصق خدودهم بأوحال الدمار، وتخرج أتباعهم المقلدين من تحت أقبية الظلم، ومن بين أنقاض الرجس، ليسمعوا في صراحة وصرامة **لا إله إلا الله**.

اخرجوا وانظروا إلى الأرض إذا نزل عليها الماء كيف تهتز وتنبت من كل زوج بهيج، وإذا مسها الغيث ازيّنت وأخذت زخرفها لتعلموا أن **لا إله إلا الله**.

اخرجوا وانظرورا إلى الحبة والورقة واليرقة والسناء والضياء والماء والظل والطل والنور والظلمة والحر والقر لتعلموا أن **لا إله إلا الله**،

قال سبحانه: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ**﴾، وقال: ﴿**لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾. وقال: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ**﴾.

وقال: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

وفي الحديث: «**خير ما قلت أنا والنبيون قبلي يوم عرفة، لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير**».

وقد صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار**»

وقال: «**أشهد ألا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة**».

وقال نوح لأبنائه: «**عليكم بلا إله إلا الله فوالذي نفسي بيده لو كانت لا إله إلا الله في حلقة من حديد مبهمة لقصمتها لا إله إلا الله**».

معنى (لبيك اللهم لبيك) وتفصيل القول في مقاصدها والإشارة إلى بعض لطائفها ودلالاتها

لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، دراسة شرعية لمعناها ومرماها ومقاصدها ومقتضاها.

فهي توحي للحاج أن عليه قبل أن يدخل بيت الواحد الأحد ألا يعبد ثانياً، وأن يخلع مع ثيابه عند الميقات كل ند وشريك، وأن يتجرد قلبه من غير الله كما تجرد بدنه من المخيط.

لبيك لا شريك لك هو معنى من معاني لا إله إلا الله. كان المشركون يلبون فيقولون: **لبيك لا شريك لك**. فيقول سيد الموحدين ﷺ قط قط، أي يكفي قفوا إلى هنا، فيزيدون إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، فلبى عليه الصلاة والسلام بالتوحيد الخالص: **لبيك اللهم لبيك**، لبيك لا شريك لك.

ومعنى: **لبيك لا شريك لك** هو ما دعت إليه الرسل عليهم الصلاة والسلام. وهو الدِّين الخالص، والعلم النافع، والعمل الصالح، والإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر؛ خيره وشره.

لبيك لا شريك لك: فلا يستحق العبادة مع الله غيره من ملك مقرب، أو نبي مرسل، أو عبد صالح، أو سلطان، أو نجم، أو كوكب، أو حجر، أو شريك، أو أي إنس أو جني، بل لله العبودية المطلقة، والألوهية بكل معانيها.

لبيك لا شريك لك: فلا يخلق ولا يرزق ولا يحيي ولا يميت ولا ينفع ولا يضر إلا الله الواحد القهار، فهو المستحق للشكر والثناء والملك والحمد.

لبيك لا شريك لك: فمن أشرك به أحبط عمله، ومن أراد غيره أبطل سعيه، فهو سبحانه لا يقبل إلا ما كان له خالصاً، وأريد به وجهه، وسلم من إرادة الشريك وقصده غيره.

لبيك لا شريك لك: فلا يجوز لقلوب الخليقة أن تتعلق بغيره لأن بيده مقاليد السموات والأرض له الملك كله، وإليه يرجع الأمر كله، وهو حي قيوم، قائم على كل نفس بما كسبت، يحيط بخلقه، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار، يعلم ما في النفوس، ولا يعلم ما في نفسه، فعال لما يريد، أمره في كن، يعلم السر وأخفى، أحسن كل شيء خلقه، ليس له سمي، وماله من ظهير، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له، هو الحي لا إله إلا هو، وهو القاهر فوق عباده، والأول والآخر، والظاهر والباطن.

لبيك لا شريك لك: يقولها ويعتقدها ويعمل بمقتضاها من سبقت لهم الحسنى، وكتبت لهم السعادة، واستحقوا الأمن، ولم يلبسوا إيمانهم بظلم، ولم تلتفت قلوبهم لغيره، بل كفروا بالطاغوت، وتخلوا عن الأنداد والأضداد وتبرؤوا من الأصنام والأوثان، وأطاعوا الرحمن، وعصوا الشيطان.

لبيك لا شريك لك: من معانيها اجتناب الرياء والسمعة المفسدتين للعمل، والمحبطتين للسعي، والمذهبتين للحسنات، بل يقصدون وجه الله وحده، ويرجون ثوابه، ويسألونه رضوانه ويستعيذون من غضبه وسخطه.

لبيك لا شريك لك: فلا يطوفون بالقبور متبركين، ولا يلوذون بالأولياء داعين راجين، زاعمين أنهم يملكون كشف الضر عنهم أو تحويله، فلا يشافي ولا يعافي ولا يهدي ولا يضل ولا يحيي ولا يميت ولا يخلق ولا يرزق إلا الله

وحده تبارك وتعالى، فإن أهل القبور لا يسمعون دعاءهم، ولو سمعوا دعاءهم ما استجابوا لهم، ويوم القيامة يكفرون بشركهم.

لبيك لا شريك لك: فلا يأتون الكهنة والعرافين، والسحرة والمشعوذين، وقد صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه، فقد كفر بما أنزل على محمد**».

لبيك لا شريك لك: فلا يدعون الجن، أو يستنجدون بهم، أو يلوذون بهم بما أهمهم، فإن الجن خلق من خلق الله عز وجل، نواصيهم بيد الله سبحانه وتعالى، وهم مقهورون مربوبون لربهم الواحد القهار.

لبيك لا شريك لك: فيعلمون علم اليقين أن من أشرك حبط عمله، وضل سعيه: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾، ﴿**وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾، ﴿**إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ**﴾، ﴿**وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**﴾.

وعند البخاري عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**من مات يجعل لله نداً دخل النار**».

لبيك لا شريك لك: فيعلمون أن الرياء بالأعمال هو الشرك الأصغر، كما ورد عنه عليه الصلاة والسلام، عند أحمد والطبراني والبيهقي.

لبيك لا شريك لك: فلا يجلب النفع ولا يدفع الضر إلا الله: ﴿**قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ وأن الماء نعمة وهبة جزيلة من واهب النعم وكاشف النقم

الماء أغلى مفقود، وأرخص موجود، الحياة لا تقبل إلا بماء، والعيش لا يصح إلا بماء ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ مع الماء الخضرة والندى، والطل والرواء، والظل والحياة، ومع فقدانه الجفاف واليبس والخمود والموت، مع الماء تشدو الأطيار، وتميل الأفنان، ويبرد النسيم، ويعبق الشذى، وتخضر الأوراق، وتطيب الثمار، ومع الماء تروى الأكباد، وتترطب الشفاه وتندى الألسن، وتنتعش الأنفس، الماء مادة الحياة، وإكسير الوجود، وسر البقاء، إذا عدم الماء زحفت جيوش المجاعة، ودلفت كتائب القحط، وأسراب البؤس، يوم يقع الظمأ في العالم تذوي الأشجار، وتذوب الأكباد، وتحترق السنابل، ويموت العشب.

فإذا تدفق الماء، وتدافقت أمواجه، وأقبلت صفوفه، أقبل معه البشر والنماء والعطاء ووصل معه الرغد والهناء، بربك هل وقع على نفسك آنس من الماء على الظمأ وأهنأ منه في الهواجر، وأحلى منه في شدة الحر.

بالماء تقوم الحقول، وتتكاثر الحبوب، وتميس الحدائق، وتهمهم الجدوال، وتتراقص الخمائل، وتشدوا البلابل، وتتمايل السنابل، الماء شريان نابض في قلب الأرض، إذا تعطل ماتت المعمورة، يوم ينتهى الماء من الدنيا، لا يطاق العيش ولا يستطاع البقاء، ويوم ينتهي الماء من الوجود يفتتح الهلاك قلاع الأنفس والثمرات، ويعصف الدمار بالمحاصيل والفواكه، وتأتي الإبادة على الإنسان والحيوان والنبت والجمال.

الماء نعمة من الله جليلة، وهبة من الخالق جميلة، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ خلق الماء عجيب، ونبؤه غريب، صوره ربه بلا لون، وأوجده بلا طعم، وأنزله بلا رائحة، خفيف الروح بهي الطلعة، إن رضي أسعد وأرغد، وإن غضب أزبد وأرعد، ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾.

سبحان من خلق الماء، إذا باشر البرد الماء جمده فأصبح كالصخر صلابة، وإذا مازجه الحر صيره كالنار توقداً، إذا عذب رق ولطف حتى صار أشهى من الشهد، وإذا أسن مُج ومُل، حتى أصبح كالسم الزعاف، إن جرى طاب، وتجدد شبابه، وحسنت ثيابه، وجملت طلعته، وإن وقف تغيرت رائحته، وذهبت لذته، وشاه منظره، فسفره أحسن من مقامه، وارتحاله خير من حله، يتباشر به أهل البادية، ويتساءل عنه أهل الحاضرة. وغضب على قوم فأتاهم في وفد الطوفان، إذا سكن مشى رويداً، يتمتم بحروف الهناء والتبريك، وإذا غضب تفجر بصيحات الويل وصواعق الدمار، يأتي إلى أحبابه فيميس بين الزهر كيد الطبيب على جفن المريض، ويقبل إلى أعدائه فلا تمنعه السدود ولا ترده الحدود، فيكسر الجسور، ويقتلع الصخور، ويجعل عاليها سافلها حتى يأذن الله بسكونه، ويأمر بهدوئه ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ نزول الماء عيد على الأقطار؛ وفرح عامر لسكان الأمصار، كأن نزوله على الناس ولادة مولود، أو عود مفقود، الماء طوع أمرك، ورهن إشارتك، يصغر جسمه حتى يسعه الكوب، ويكبر حتى يملأ المحيط، تشربه فإذا هو السائغ الممتع، وتغتسل به فإذا هو المنظف النزيه، يسخن ويبرد، ويعتدل ويجمد.

الماء يحب الحرية والانطلاق، ويكره السجن والقيد، فإن حبسته في قفص الاتهام وحجزته في مكان الانتظار، تغيرت أخلاقه، واختلف مزاجه، لأنه

ظريف لطيف شريف، دعه يمر ويعبر، واتركه يسافر ويرتحل ليمر على الحدائق والحقول والمزارع، ويسلم على الخمائل والبساتين، ويزور الناس والدواب والطيور والزواحف، بل ويمر على الأرض كل الأرض﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾، ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾، ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾، ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾، ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾، ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾، ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾، ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾، ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾، ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾، ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ ﴾.

حكمته سبحانه في خلق النوم
وجعله راحة للأحياء وسكناً للخلق

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾، والنوم مخلوق عجيب شقيق للموت، ساكن الحركات، خافت الهمس، يداعب الجفون، ويخامر العقل، ويطرح الجسم، خفيف الظل على المسرور، جهم المحيا على المحزون، فيه ملاذ من متاعب الحياة، وفيه استجمام من مصاعب العيش، إذا كثرت الغموم، وتصارعت الهموم شردت بنوم عميق لا يبقي لها أثراً ولا عيناً.

إن النوم محطة للجسم بجوارحه، تتسلخ فيه من أوصابها وأتعابها ثم تستيقظ قوية عارمة نشيطة، إذا تبلبل الفؤاد بلواعج المشاغل، واختلطت الأمور على الذهن المكدود فنم، فإذا طرقك الفزع وفاجأك القلق فنم، وإذا وقعت في اضطراب وصرت في حيرة فنم ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ ثم لأنك مخلوق ضعيف هزيل والخالق لا ينام فهو ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ ثم لأن طاقتك محددة، وأيامك معدودة، إن النوم دليل على موتك، وبرهان على فنائك، وفي الحديث: «**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يرفع القسط ويخفضه**»، لا ينام سبحانه لأنه حي قيوم، أبدي سرمدي، ونحن ننام لأننا جئنا من العدم وسنصير إلى الفناء، وخرجنا من التراب إلى التراب، ننام لنذكر الموت وما بعده، والقبر وما فيه، ننام لننسى الأحقاد والضغائن، والآلالم والمتاعب، ننام لنستأنف يوماً جديداً وعمراً تليدا﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾.

هجـــدنا ونام الركب والليل مـــســـرف

ومـــا نمت عن ذاكـــراك يا طيّب الذكـــرى

ومن آياته منامكم بالليل، فيمسك الأرواح ويعطل الحركة، ويذهب الشعور، ويغيب الذهن، لتعلم أنك مخلوق فان، وهو واحد خالق باق، مهيمن، قدير جل في علاه.

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

خلقه سبحانه الموت وكتابته الفناء على ما سواه وتفرده بالبقاء تعالى

الموت هو الوقوف على ساكن، وإعلان الخاتمة، نذير النهاية، الموت مخلوق غامض، شجاع يتسلق الجدران، ويصعد الحيطان، لا يحتمى منه بقلاع، ولا يمتنع منه بحصون: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ واقف في الطريق بالمرصاد: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ﴾ زائر لا يستأذن، وضيف لا يعرف المجاملة، الناس عنده سواسية، الثري واسع الغنى كالفقير المتهالك، ليس له وقت في الزيارة معلوم، وليس له زمن في اللقاء مفهوم، مزاجه عجيب، ونبؤه غريب، يدلف في السحر، ويقدم في الظهيرة.

يا نائم الليل مسروراً بأوله

إن الحوادث قد يطرقن أسحارا

الموت ينزل الراكب من على ظهر البعير، ويرجل الفارس من على صهوة الفرس. لا يرجئ الجائع حتى يشبع، ولا الظامئ حتى يروى، ولا النائم حتى يستيقظ، ولا المسافر حتى يقيم: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ قيس بن ساعدة عنده كباقل، وحاتم لديه كمادر، وعنترة في حكمه كأبي حية النميري، قدم على الخليل والنمرود، وزار موسى وفرعون، واختطف بلالاً وأمية بن خلف، إذا تمت ليلة العرس، وحفلة الزواج، ومهرجان الأفراح، وضرب دف الطرب، ولعلع صوت الأنس، وأضيئت مصابيح السرور، فاجأ الحفل يقبض العريس، وأبكى الحضور، ونغص السمر، وكدر السعادة، وجدد العويل، وقلب الفرح إلى ترح.

إذا اجتمع الوالد بولده، وأنست الأم بأبنائها، وطاب اللقاء، وحصل الوصال، وعم البشر، دخل فجأة فأخذ الأب، والتقم الأم، وحمل الابن ليضعه في حفرة الموت، يأخذ الطفل وفمه في ثدي أمه، وهو يصيح وأمه تولول وأبوه ينوح، فلا يرحم ولا يقف ولا يراجع نفسه، إذا حاز التاجر تجارته وأحرز بضاعته وجمع ماله وعدده، وظن أن ماله أخلده، قفز عليه الموت من نافذة القدر، فوضع خده على التراب، ونثر دنانيره، ومزق أكياسه، وعبث بدوره، وعطل قصوره.

إذا ولي صاحب المنصب منصبه، وسعد بمنزلته، وتساقطت عليه أوراق الحظ وخطابات التهنئة، وبرقيات التبريك، سقط الموت على رأسه فجأة، فقلب كرسيه وسحب سرسره، فحول الهناء عزاءً، والفرح ترحاً، والعطية بلية.

إذا استوى الشاب على سوقه، وصلب عوده، وقوي متنه، واهتزت كتفاه، وترنح عطفاه، طرحه الموت أرضاً، فبقر بطنه، وجدع أنفه، وفقأ عينيه، ودق جمجته، وحطم عظامه، وهلهل أسنانه، ومزق لسانه.

الموت يصرع الشجاع والسيف في يده، وخوذته على رأسه، لا الكريم يشفع له جوده، ولا البخيل يمنعه إمساكه، ولا المقدام يذوذ عنه بأسه، ولا الجبان يحصنه فراره.

الموت لا يستحي من الكل، ولا يرهب الجميع، ولا يوقر الأحياء: ﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ** ﴾. يموت الكل إلا واحدا، ويذهب الجميع إلا واحداً ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾.

الموت قذيفة لا يدري من أين تأتي، مرة من فوق، ومرة من تحت، تارة من اليمين، وأخرى من اليسار.

الموت ينزع العينين، ويشق الشفتين، ويفصل الكفين من الساعدين، والساعدين من العضدين، والعضدين من الكتفين، فمهمة الموت نثر المنظوم، وهدم البناء، وطمس الجمال، وتفريق المجتمع ، الموت دمع وعويل وأسىً ولوعة وأسف، الموت وداعٌ إجباري وهجوم خاطف، واقتحام مأساوي، هدد الله بالموت اليهود فتعلقوا بأذيال البقاء، وناداهم: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ احتمى الملوك بالجنود فنجوا إلا من الموت، اتفق المريض والطبيب وصانع الدواء وبائعه وصارفه على خطة يسلمون فيها من الموت، فماذا حصل؟

مـــــــــــات المـداوي والمـداوى والـذي

صنـع الـدواء وبـاعـــــه ومـن اشـــــتـــــرى

الموت لا شماتة فيه لأنه عام لا خصوص له، مطلق لا يقيد، حر وليس بعبد، أنزل آل كسرى في الحفر، وسحب سيف ذي يزن من غمدان، وبطش بالمناذرة، وداس الغساسنة، هجاه الشعراء فجعلهم أثراً بعد عين، وحذر منه الخطباء فجرهم من على المنابر، ووصفه الأطباء فقتلهم بعقاقيرهم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾.

خلق الله الموت ليبقى وحده، وأوجد الفناء ليرث أهل الأرض والسماء، وكتب الهلاك على الكائنات ليكون المتفرد بالملك عن جميع المخلوقات.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ تحدث عن الموت بصفته من قدر الله، وفيه على الفرد مصيبة، وعلى الجماعة رحمة، فكيف لو بقي من مات؟ كيف يكون عيش الناس؟ كيف لو أن كل ابن تمنى أن أباه لم يمت فما مات، كم سنجد من الآباء والأجداد الأكابر الذين هم بحاجة إلى رعاية وعناية فالموت فيه راحة للأموات والأحياء.

عظمته سبحانه وكمال قهره وعلو قدره وشدة بطشه وعظيم قدرته ونفاذ مشيئته وغلبة أمره عز وجل

من أعظم أسمائه سبحانه: العظيم، ومن أعظم صفاته العظمة، فهو عظيم في ذاته، عظيم في أسمائه وصفاته، عظيم في أفعاله، وهذه أحاديث عن عظمته سبحانه كلها صحيحه.

يقول عليه الصلاة والسلام: «**إذ قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوانٍ** ـ قال: عليٌّ وقال غيره: **صفوان ينفذهم ذلك**» ـ ﴿إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

وقال: «**أرأيتم ما أنفق الله عز وجل منذ خلق السموات والأرض فإنه لم ينقص ما في يمينه، وعرشه على الماء، وبيده الأخرى الميزان، يرفع ويخفض**».

وقال: «**قدر الله عز وجل المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة**».

وقال: «**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**».

وجاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع والأراضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، تصديقاً لقول الحبر. ثم قرأ رسول الله ﷺ:

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

وقال: «**لا تزال جهنم تقول: هل من مزيد، حتى يضع رب العزة فيها قدمه فتقول: قط قط، وعزتك ويزوي بعضها إلى بعض**».

وقال: «**كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وكتب في الذكر كل شيء**».

وقال: «**إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل؛ حتى تطلع الشمس من مغربها**».

وقال: «**إن الله تعالى زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ مُلكها ما زُوي لي منها وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض**» .

وقال: «**قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته. وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحداً**».

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: حدثني رجال من الأنصار أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله ﷺ رُمي بنجم فاستنار فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمي بمثل هذا؟** قالوا: الله ورسوله أعلم، كنا نقول: ولد الليلة رجل عظيم، ومات رجل عظيم. فقال رسول الله ﷺ: **فإنها لا يُرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالى اسمه إذا قضى أمراً سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح هذه السماء الدنيا، ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة**

العرش ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ماذا قال، قال: فيستخبر بعض أهل السموات بعضاً حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا، فتخطف الجن السمع فيقذفون إلى أوليائهم ويرمون به فما جاؤوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يقرفون فيه ويزيدون».

وقال: «إن لله عز وجل تسعة وتسعون اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة».

وقال: «يأخذ الجبار سماواته وأرضه بيده فيقول: أنا الملك أين الجبارون وأين المتكبرون».

وقال: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل».

وقال: «يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع، ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟».

وقال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غدٍ إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطرُ أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله».

عن مسروق عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «من حدثك أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد كذب، وهو يقول: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ ومن حدثك أنه يعلم الغيب فقد كذب وهو يقول: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾.

وقال: «يد الله ملآى لا يغيضها نفقة، سحَّاء الليل والنهار. وقال: أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما في يده».

وقال: «**وكان عرشه على الماء وبيده الأخرى الميزان يخفض ويرفع**».

عن جرير ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا جلوساً عند النبيﷺ إذ نظر إلى القمر لية البدر، قال: «**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها فافعلوا**».

فسبحان من سجد لعظمته العظماء؛ ووجل من خشيته الأقوياء، وقامت بقدرته الأرض والسماء. لو أذن للجبال أن تنطق بالمكنون، وتبيح بالسر المدفون لصاحت: لا إله إلا الله.

لو فهمنا نطق الكائنات، ولو سمعنا خطاب المخلوقات، ولو علمنا منطق الطير في السماء، ولغة السمكة في الماء، لعجبنا من لهج الجميع بلا إله إلا الله.

لو تحدّث الشجر، وتكلم الحجر، ولو صاحت الجداول، وأنشدت الخمائل لما سمعنا فيها غير: الله الله.

زمجر الرعد ليقول هذه بشارة رحمته فكيف نذير عذابه، لمع البرق ليقول هذه بسمة فرجه بنزول الغيث على عباده.

شمخت الجبال كأصابع المسبحين، وصمتت كأنها الشيوخ الخاشعين ولسان الحال والمقال، ينادي: تبارك الله أحسن الخالقين.

إذا رأيت الروض البهيج، وشممت الأريج، ونظرت إلى الألوان الزاهية، والأشكال الباهية، ولمحت الحسن المتناهي، والجمال الفائق، والمنظر الخلاب، والسحر الجذّاب، والتركيب البديع، الغمام ينقّط، والحمام يلقط، والورق يسقط والشعاع يسري، والكون في مهرجان حافل يمدح الملك القدوس بقصائد العظيم ولسان الحال يهتف تبارك ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾.

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

في هذه الآية الثانية من السورة صورة من صور قدرة الله التي ختم بها الآية الأولى. وحين تستقر هذه الصورة في قلب بشري يتم فيه تحول كامل في تصوراته ومشاعره واتجاهاته وموازينه وقيمه في هذه الحياة جميعاً.

إنها تقطعه عن شبهة كل قوة في السموات والأرض وتصله بقوة الله، وتيئسه من مظنة كل رحمة في السموات والأرض وتصله برحمة الله. وتوصد أمامه كل باب في السموات والأرض، وتفتح أمامه باب الله. وتغلق في وجهه كل طريق في السموات والأرض، وتشرع له طريقه إلى الله.

ورحمة الله تتمثل في مظاهر لا يحصيها العبد، ويعجز الإنسان عن مجرد ملاحقتها وتسجيلها في ذات نفسه وتكوينه، وتكريمه بما كرم، وفيما سخر له من حوله ومن فوقه ومن تحته، وفيما أنعم به عليه مما يعلمه ومما لا يعلمه وهو كثير.

رحمة الله تتمثل في الممنوع تمثلها في الممنوح، ويجدها من يفتحها الله له في كل شيء، وفي كل وضع، وفي كل حال، وفي كل مكان.. يجدها في نفسه، وفي مشاعره، ويجدها فيما حوله، وحيثما كان، وكيفما كان. ولو فقد كل شيء مما يعد الناس فقده هو الحرمان...

ويفتقدها من يمسكها الله عنه في كل شيء، وفي كل وضع، وفي كل حالة، وفي كل مكان. ولو وجد كل شيء مما يعده الناس علامة الوجدان والرضوان!

وما من نعمة ـ يمسك الله معها رحمته ـ حتى تنقلب هي بذاتها نقمة. وما من منحة ـ تحفها رحمة الله ـ حتى تكون هي بذاتها نعمة.. ينام الإنسان على الشوك ـ مع رحمة الله ـ فإذا هو مهاد. وينام على الحرير ـ وقد أمسكت عنه ـ فإذا هو شوك القتاد. ويعالج أعسر الأمور ـ برحمة الله ـ فإذا هي هوادة ويسر. ويعالج أيسر الأمور ـ وقد تخلت رحمة الله ـ فإذا هي مشقة وعسر. ويخوض بها المخاوف والأخطار فإذا هي أمن وسلام. ويعبر بدونها المناهج والمسالك فإذا هي مهلكة وبوار! ولا ضيق مع رحمة الله. إنما الضيق في إمساكها دون سواه. لا ضيق ولو كان صاحبها في غياهب السجن، أو في جحيم العذاب أو في شعاب الهلاك. ولا سعة مع إمساكها ولو تقلب الإنسان في أعطاف النعيم، وفي مراتع الرخاء. فمن داخل النفس ـ برحمة الله ـ تتفجر ينابيع السعادة والرضا والطمأنينة. ومن داخل النفس ـ مع إمساكها ـ تدب عقارب القلق والتعب والنصب والكدر والمعاناة!

هذا الفيض يفتح، ثم يضيق الرزق. ويضيق السكن، ويضيق العيش وتخشن الحياة، ويشوك المضجع.. فلا عليك. فهو الرخاء والراحة والطمأنينة والسعادة. وهذا الفيض يمسك. ثم يفيض الرزق ويقبل كل شيء. فلا جدوى. وإنما هو الضنك والحرج والشقاوة والبلاء.

المال والولد، والصحة والقوة، والجاه والسلطان. تصبح مصادر قلق وتعب ونكد وجهد إذا أمسكت عنها رحمة الله. فإذا فتح الله أبواب رحمته كان فيها السكن والسعادة والراحة والاطمئنان.

يبسط الله الرزق ـ مع رحمته ـ فإذا هو متاع طيب ورخاء، وإذا هو رغد في الدنيا وزاد إلى الآخرة. ويمسك رحمته، فإذا هو مثار قلق وخوف، وإذا هو مثار حسد وبغض، وقد يكون معه الحرمان ببخل أو مرض، وقد يكون معه التلف بإفراط أو استهتار.

ويمنح الله الذرية ـ مع رحمته ـ فإذا هي زينة في الحياة ومصدر فرح واستمتاع، ومضاعفة للأجر في الآخرة بالخلف الصالح الذي يذكر الله، ويمسك رحمته فإذا الذرية بلاء ونكد وعنت وشقاء، وسهر الليل، وتعب النهار!

ويهب الله الصحة والقوة ـ مع رحمته ـ فإذا هي نعمة، وحياة طيبة، والتذاذ بالحياة. ويمسك نعمته فإذا الصحة والقوة بلاء يسلطه الله على الصحيح القوي، فينفق الصحة والقوة فيما يحطم الجسم ويفسد الروح، ويدخر السوء ليوم الحساب!

ويعطى الله الجاه والسلطان ـ مع رحمته ـ فإذا هي أداة إصلاح، ومصدر أمن، ووسيلة لادخار الطيب الصالح من العمل والأثر. ويمسك الله رحمته فإذا الجاه والسلطان مصدر قلق على قوتهما، ومصدر طغيان وبغي بهما، ومثار حقد وموجدة على صاحبهما لا يقر معهما قرار، ولا يستمتع بجاه ولا سلطان، ويدخر بهما للآخرة رصيداً ضخماً من النار!

والعلم الغزير. والعمر الطويل. والمقام الطيب. كلها تتغير وتتبدل من حال إلى حال... مع الإمساك ومع الإرسال... وقليل من المعرفة يثمر وينفع ، وقليل من العمر بارك الله فيه. وزهيد من المتاع يجعل الله فيه السعادة. والجماعات كالآحاد، والأمم كالأفراد. في كل أمر وفي كل وضع، وفي كل حال.. ولا يصعب القياس على هذه الأمثال!

ومن رحمة الله أن تحس برحمة الله! فرحمة الله تضمك، وتغمرك، وتفيض عليك. ولكن شعورك بوجودها هو الرحمة. ورجاؤك فيها وتطلعك إليها هو الرحمة، وثقتك بها وتوقعها في كل أمر هو الرحمة، والعذاب هو العذاب في احتجابك عنها، أو يأسك منها، أو شكك فيها. وهو عذاب لا يصبه الله على مؤمن أبداً. ﴿ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾.

ورحمة الله لا تعز على طالب في أي مكان ولا في أي حال. وجدها إبراهيم ـ عليه السلام ـ في النار. ووجدها يوسف ـ عليه السلام ـ في الجب كما وجدها في السجن. ووجدها يونس ـ عليه السلام ـ في بطن الحوت في ظلمات ثلاث. ووجدها موسى ـ عليه السلام ـ في اليم وهو طفل مجرد من كل قوة ومن كل حراسة، كما وجدها في قصر فرعون وهو عدو له متربص به ويبحث عنه. ووجدها أصحاب الكهف في الكهف حين افتقدوها في القصور والدور. فقال بعضهم لبعض ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾، ووجدها رسول الله ﷺ وصاحبه في الغار والقوم يتعقبونهما ويقصون آثارهما.. وجدها كل من آوى إليها يأساً من كل من سواها. منقطعاً عن كل شبهة في قوة، وعن كل مظنة في رحمة، قاصداً باب الله وحده دون الأبواب.

ثم إنه متى فتح الله أبواب رحمته فلا ممسك لها، ومتى أمسكها فلا مرسل لها. ومن ثم فلا مخافة من أحد، ولا رجاء في أحد. ولا مخافة من شيء، ولا رجاء في شيء. ولا خوف من فوت وسيلة، ولا رجاء مع الوسيلة. إنما هي مشيئة الله. ما يفتح الله فلا ممسك. وما يمسك الله فلا مرسل. والأمر مباشرة إلى الله..﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يقدر بلا معقب على الإرسال والإمساك، ويرسل ويمسك وفق حكمة تكمن وراء الإرسال والإمساك ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا﴾.

وما بين الناس ورحمة الله إلا أن يطلبوها مباشرة منه، بلا وساطة ولا وسيلة؛ إلا التوجه إليه في طاعة وفي رجاء وفي ثقة وفي استسلام. ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ فلا رجاء في أحد من خلقه، ولا خوف لأحد من خلقه. فما أحد بمرسل من رحمة الله ما أمسكه الله.

أية طمأنينة؟ وأي قرار؟ وأي وضوح في التصورات والمشاعر والقيم والموازين تقر هذه الآية في الضمير؟!

آية واحدة ترسم للحياة صورة جديدة، وتنشىء في الشعور قيماً لهذه الحياة ثابتة، وموازين لا تهتز ولا تتأرجح ولا تتأثر بالمؤثرات كلها.

ذهبت أو جاءت. كبرت أم صغرت. جلت أم هانت. كان مصدرها الناس أو الأحداث أو الأشياء!

صورة واحدة لو استقرت في قلب إنسان لصمد كالطود للأحداث والأشياء والأشخاص والقوى والقيم والاعتبارات. ولو تضافرت عليها الإنس والجن وهم لا يفتحون رحمة الله يمسكها. ولا يمسكونها حين تفتح ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾

في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه، لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة لعدم علمه بالعواقب، فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد. وأوجب له ذلك أموراً:

منها: أنه لا أنفع له من امتثال الأمر وإن شق عليه الابتداء، لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات ولذات وأفراح، وإن كرهته نفسه فهو خير لها وأنفع. وكذلك لا شيء أضر عليه من ارتكاب النهي وإن هويته نفسه ومالت إليه، فإن عواقبه كلها آلام وأحزان وشرور ومصائب، وخاصية العقل تحتمل الألم اليسير لما يعقبه من اللذة العظيمة والخير الكثير، واجتناب اللذة اليسيرة لما يعقبها من الألم العظيم والشر الطويل، فنظر الجاهل لا يجاوز المبادئ إلى غايتها، والعاقل الكيس دائماً ينظر إلى الغايات من وراء ستور مبادئها؛ فيرى ما وراء تلك الستور من الغايات المحمودة والمذمومة، فيرى المناهي كطعام لذيذ قد خلط فيه سم قاتل، فكلما دعته لذته إلى تناوله نهاه ما فيه من السم، ويرى الأوامر كدواء مرّ كريه المذاق مفض إلى العافية والشفاء، وكلما نهاه كراهة مذاقه عن تناوله أمره نفعه بالتناول، ولكن هذا يحتاج إلى فضل علم تدرك به الغايات من مبادئها وقوة صبر يوطن به نفسه على تحمل مشقة الطريق لما يؤمل عند الغاية، فإذا فقد اليقين والصبر تعذر عليه ذلك، وإذا قوي يقينه وصبره هانت عليه كل مشقة يتحملها في طلب الخير المستمر واللذة الدائمة.

ومن أسرار هذه الآية أنها تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور، والرضى بما يختاره له ويقضيه له لما يرجو فيه من حسن العاقبة.

ومنها: أنه لا يقترح على ربه، ولا يختار عليه، ولا يسأله ما ليس له به علم، فلعل مضرته وهلاكه فيه وهو لا يعلم، فلا يختار على ربه شيئاً؛ بل يسأله حسن الاختيار له، وأن يرضيه بما يختاره فلا أنفع له من ذلك.

ومنها: أنه إذا فوض الأمر إلى ربه، ورضي بما يختاره له؛ أمده فيما يختاره له بالقوة عليه والعزيمة والصبر، وصرف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه، وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه، وبما يختاره هو لنفسه.

ومنها: أنه يريحه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات، ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات التي يصعد منها في عقبة وينزل في أخرى، ومع هذا فلا خروج له عما قدر عليه، فلو رضي باختيار الله أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به فيه، وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم غير ملطوف به فيه، لأنه مع اختياره لنفسه، ومتى صح تفويضه ورضاه، اكتنفه في المقدور العطف عليه، واللطف به؛ فيصير بين عطفه ولطفه، فعطفه يقيه ما يحذره، ولطفه يهون عليه ما قدره.

وفي كل شيء له آية .·. تدل على أنه واحد

إن البعرة تدل على البعير، وإن الأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحر ذو أمواج، ونور يلمع، وشمس تسطع، وماء دفاق، ونجوم تلوح، وشذى يفوح، ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير.

للقدرة أدلة كثيرة، وبراهين وفيرة، كاختلاف اللغات، وتعدد الأصوات، وتباين النغمات، وتفاوت الصفات، كلها تدل على رب الأرض والسموات.

ورقة التوت تأكلها الدودة فتخرج حريراً، والنحلة فتخرج عسلاً، والغزال فتخرج مسكاً، ألا يدل على علام الغيوب.

البيضة حصن حصين، وبناء رصين، لا منفذ ولا مخرج ولا هواء ولا ماء، تفقس فيخرج منها حيوان سميع بصير، ذو شكل حسن، وهيئة جميلة، وصوت مليح، فاسأل من خلق، ومن برأ، ومن أنشأ، ومن صور، إنه الخلاق العليم.

الزهرة ذات ألوان؛ أبيض فاتح، وأحمر غامق، وأسود فاحم، وأخضر ممتع، تهل بالندى، وتفوح بالشذى، وتميس مع الهوى، آية من آيات مَن على العرش استوى.

تأمل في نبات الأرض وانظر
إلى آثار ما صنع المليكُ

عيون من لجين شاخصات
بأحداق هي الذهب السبيكُ

على كثب الزبرجد شاهدات
بأن الله ليس له شريكُ

الأرض أشكال وألوان، وجبال ووديان، وسفوح وغدران، وصحار وجنان.

﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ كلها تدل على الواحد الأحد.

الطيور الصادحة، الأنهار السارحة، الماء والهواء، والسناء والضياء، تدعوك لعبودية الواحد الأحد.

خرج سليمان عليه السلام يستسقي بالناس فمر بنملة رفعت أرجلها إلى السماء تدعو ربها، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، فقال سليمان: ارجعوا فقد سقيتم بدعاء غيركم.

نملة عرفت ربها فالتجأت إليه، ودعته وسألته، واستغاثت به، نملة وحدت خالقها وأخلصت له رجاءها، وبثت عليه شكواها، نملة آمنت بربها، وسألته رزقها، وعرضت عليه حالها، وكثير من الناس أعرض عن ربه، وكفر بمولاه.

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هل هناك إلا صنعه، وبديع خلقه، وعجيب قدرته، وآثار حكمته.

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أما يكفي ما عرض في هذه الصفحة دليلاً على وحدانيته، وبرهاناً على ربوبيته وألوهيته، وعلامة على تفرده بالخلق والرزق.

﴿فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾، وقد وضح الحق، وظهر البرهان، وعمت الرسالة، وأنزلت الكتب.

﴿فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾، وفي الأرض آثاره، وفي السماء أنواره، وفي الجنة رحمته، وفي النار نقمته، وفي البحر عظمته.

﴿فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾، والمفاتيح بيده، والمقاليد بقدرته، وهو غالب على أمره، ويخلق ما يشاء ويختار.

قال عالم النفس الشهير وليم جميس: إن نصف العلم قد يورث شكا ولكن العالم الكامل لا يشك في الله طرفة عين.

قلت: لأن العلم يدعوك إلى معرفة آياته فتخشاه، وإنما يخشى الله من عباده العلماء.

قيل لأحد الحكماء: بم عرفت الله؟ قال: بخطوط أقلام القدرة على أوراق الكائنات.

وقيل لآخر: بم عرفت ربك؟ قال: بأنه ينقض العزائم، وينكث الهمم.

واعلم أن الله فعّال لما يريد، لأن في الناس من يريد شيئاً لم يفعله، ومنهم من يفعل شيئاً لا يريده، والله فاعل ما أراد، غالب على أمره، لا راد لحكمه، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

والله يعرفه الصدِّيق كل آن، ويعرفه المؤمن طيلة الزمان، ويعرفه الكافر ساعة الامتحان.

قال فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾؟! فأجراها الله من فوق رأسه.

يقول بعض العلماء: افتخر فرعون بنهر ما أجراه فما أجرأه!؟

والعامة تقول: لا همّ والله يُدعى. والمعنى : ما دام أن الله يسأل فإنه سوف يستجيب كما وعد سبحانه، فيزول كل هم، ويذهب كل غم.

وقرأت أن أحد علماء الكيمياء في الغرب يقول: كلما شككت في القدرة دخلت المعمل فازددت إيماناً.

وقد دلل الله على قدرته بخلقه فقال: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ فإذا هم لم يخلقوا شيئاً، ولم يبدعوا شيئاً، لأنهم لا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا.

ولذلك لما ذكر الله أحقيته بالعبودية وتفرده بالألوهية قال: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ فالذي يخلق أولى أن يُعبد، وأن يُحمد، وأن يوحّد، والذي لا يخلق ليس له حق في الربوبية، ولا منازعة في الألوهية، لأنه عاجز، ضعيف، محتاج، مقهور.

وإن في خلق النحلة، وحياتها في خليتها، وبنائها لبيوتها، وجلبها لرزقها، ووضعها للعسل لآية لمن أراد أن يتدبّر ويتفكّر ويتأمّل، ولذا ذكر الكاتب كريسي مريسون في كتاب «الإنسان لا يقوم وحده»: من علَّم النحلة أن تذهب المسافات الطويلة ثم تعود إلى خليتها ولا تضل، كأن لديها جهاز إرسال؟

قلنا: علمها ﴿ الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾.

والنحل قل للنحل يا طير البوادي

ما الذي بالشهد قد حلاكا

وتعود شوقاً للخلية هادياً

فمن الذي بين الحقول هداكا

عرفت الفطر ربها؛ لأنها فطرت على توحيده، وجبلت على الإيمان به، ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾.

قال بعضهم: فطرهم على ما في الميثاق وهو العهد الذي أخذ عليهم بعد أن نثرهم من ظهر أبيهم آدم، فقال: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾.

وفي الحديث الصحيح: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**».

سبحان من يعفو ونهفوا دائماً

ولم يزل مهما هفا العبد عفا

يعطي الذي يخطي ولا يمنعه

جلاله عن العطا لذي الخطا

قال بعض أهل العلم: وأهل الجاهلية يعلمون أن الله خالقهم وأنه فوقهم، وأنه على العرش سبحانه، وبذلك سرحت أشعارهم وأخبارهم، يقول أحد العارفين: وجدت ورقة نخلة مكتوب عليها: الله خلقها.

قال له عارف آخر: ولو لم تجد هذا لكان في خلق النخلة نفسها أعظم شهادة على قدرة الباري: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾.

انظر لتلك الشجرة

ذات الغصون النضرة

طالت بحسن بارع

وأينعت بثمرة

أليس تلك آيات

معلومة مشتهرة

بأن ربي صاغها

ذو القدرة المقتدرة

كتب أحد الحكماء لوحة عند مدخل حديقته: هنا مدرسة الإيمان.

وهذا صحيح، فإن من يدخل الحديقة ويمد بها النظر والاعتبار، والتفكُّر والتأمُّل، يزداد يقيناً بحكمة الملك العلام.

ولما كان غاندي محرر الهند يخوض بعض الأزمات، قال له بعضهم: من يعينك على تخطي هذه الأهوال، فأشار بأصبعه إلى السماء، وقال: لولا ذاك لانهارت قواي، وهذا كفعل المشركين إذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدِّين.

وكان معاذ وغيره من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يقول أحدهم لأخيه: اجلس بنا نؤمن ساعة. فيتذكرون نعم الله وأيامه وآياته والعبر في خلقه، فيزدادون إيماناً مع إيمانهم.

ومن آياته سبحانه الدالة على وحدانيته، وتفرده بالخلق والأمر، واستحقاقه العبودية وحده لا شريك له، ساعة الاضطرار التي تمر بالإنسان، وهي الكربة الشديدة والنازلة العصيبة، حينها لا يجد العبد إلا الله معينا ومنقذاً وناصراً. ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾.

فلا يجد الغريق ولا الحريق ولا الطريد ولا الشريد ولا المكروب إلا الله وحده، ولهذا نطق بها فرعون ساعة الغرق حيث لم تنفعه يوم قال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فكان الجواب: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

ولما قالها يونس بن متى وهو في ظلمات ثلاث، ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فنفعه ذلك لأنه كان من المسبحين في الرخاء، فأنقذه الله في الشدة. ﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

والأمم جميعها مقرة بوجود الخالق سبحانه في الجملة، حتى أن أهل فارس والروم والترك والتركمان والأكراد والديلم وشعوب الأرض يستغيثون به سبحانه في الأزمات، وهذا الإيمان لا يكفيهم، ومن العذاب لا ينجيهم، حتى يؤمنوا بما بعثت به الرسل عليهم الصلاة والسلام وهو الإيمان بألوهية الله سبحانه وتعالى، وعدم الإشراك معه في العبودية، وإلا فبمجرد الإيمان بوجود موجوده حتى عند من أنكره في الظاهر قال موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾.

ولذلك قال أمية بن أبي الصلت الشاعر يصف ذهاب موسى إلى فرعون:

وأنت الذي مِنْ فضل مَنٍّ ورحمة
بعثت إلى موسى رسولاً منادیا

فقلت له فاذهب وهارون فادْعُوَا
إلى الله فرعون الذي كان طاغيا

فقولا له هل أنت سويت هذه
بلا وتد حتى اطمأنت كما هيا

وقولا له آأنت أمسكت هذه
بلا عمد ارفق إذن بك بانيا

وقولا له آأنت سويت وسطها
منيرا إذا ماجنه الليل هاديا

وقولا له من يرسل الشمس غدوة
فيصبح ما مست من الأرض ضاحيا

وقــولا له من ينبت الحب في الثــرى

فـيـصـبح منه البـقل يهـتـز رابيـا

ويخـــرج منه حـــبـــه في رؤوســـه

فـــفي ذاك آيات لمن كـــان واعـــيـــا

ومما نقله بزر جمهر أن عجوزاً فارسيه تركت دجاجاً لها بجانب قصر أحد ملوكهم، وسافرت فلما رجعت وجدت خدم الملك عدوا على دجاجها، فأخذوه وذبحوه وأكلوه، فبكت ونظرت إلى السماء وقالت: أنا غبت يا رب فأين أنت!

إذا جـــار الـوزيـر وكـــاتبـــاه

وقـاضي الأرض أجـحف في القـضـاء

فـــــــويـل ثـم ويـل ثـم ويـل

لقـاضي الأرض من قـاضي السـمـاء

وهذا دليل على أن هذا مغروس في الفطر من أنه رب قوي قدير ينصف وينصر.

ومن الآيات على ألوهيته: اسمه المتفرد بالجلال والجمال والكمال، وهو لفظ «**الله**» وهو أشهر المعارف، وأعظم الأعلام، وأحسن الأسماء، حتى إن بعض النحاة عقد فصلاً في كتابه ليعرف بهذا الاسم، فلما جاء يتكلم استحيا أن يعرف المعرفة، فقال: الله أعرف المعارف لا يحتاج إلى تعريف، فَشُكِر على هذا الصنيع.

وهذا من التوقير والتقدير، قال نوح لقومه: ﴿ **مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً** ﴾.

وقد ذكروا أن بشراً الحافي قبل أن يتوب وجد ورقة ملقاة في السوق مكتوب فيها الله، فقال: تعاليت يارب أن يهان اسمك ، فرفع الورقة وطيبها، فرفع الله اسمه وطيب ذكره.

وكان بعض أهل الجاهلية لا يحلف بالله فاجراً، يخاف من النقمة العاجلة، وكانوا يتساءلون باسمه جل في علاه، قال تعالى: ﴿الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾.

سبحان من لو سجدنا بالجباه له
على شبا الشوك والمحمي من الإبرِ

لم نبلغ العشر من معشار نعمته
ولا العشير ولا عشراً من العشرِ

وكانت العامة يضعون البذر في التراب وهم يقولون: حب يابس في سفح يابس بين يديك يا علام الغيوب.

والمعنى: أن الحب اليابس وحده لا حياة فيه، وكذلك الأرض اليابسة ولكن سر الإحياء والإنبات عند الواحد الأحد سبحانه.

وقد ذكر عالم نبات أمريكي أن البذرة إذا وضعت في الأرض لا تنبت حتى تهتز الأرض هزة خفيفة، فتفقس البذرة وتخرج، ومصداق هذا في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾.

وقد ذكر الدكتور زغلول النجار: أن علماء الفلك اكتشفوا أن هناك نجوماً فارقت مواقعها من آلاف السنين في طريقها إلى الأرض، وما بقي إلا مواقعها، وفي القرآن: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾. واكتشفوا أن الكون يتسع شيئاً فشيئاً، وفي القرآن ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾.

واسم «الله» عند بعض أهل اللغة. هو الذي تؤلهه القلوب، وتحبه وتسكن إليه، وتطمئن له، وترضى به، ولا يمكن أن تجد سكينة ولا أمناً إلا معه، ويبقى

في القلب فقر وفاقة وحاجة وتمزق وقلق واضطراب حتى يعرف ربه ويعبده ويذكره ويوحده، حتى قال بعض العارفين: ماذا فقد من وجد الله؟! وماذا وجد من فقد الله؟!

وقد تأتي معرفته سبحانه وتعالى من هجوم اليقين على القلب، كما حدث لسحرة فرعون، فإن الإيمان باشر قلوبهم في لمح البصر ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾.

ومثلما حدث لكثير ممن أسلم قديماً وحديثاً، فإن العلم الضروري يصل إلى شغاف القلوب في لحظة، وهذه مسألة الضرورة. حتى قال الهمداني للجويني في مسألة علوه سبحانه: أخبرنا عن هذه الضرورة التي يجدها أحدنا في نفسه عند الدعاء، لا يقول يا ألله يا ألله إلا اتجه قلبه إلى العلو، يعني الفوقية، فضرب الجويني بيده على رأسه وصاح: حيرني الهمداني، حيرني الهمداني.

وهؤلاء أوغلوا في علم الكلام فأورث لهم شكوكاً وشبهات.

وإلا فإن الجارية في عهده ﷺ لما سألها: أين الله؟ أشارت إلى السماء، قال لمولاها: «**أعتقها فإنها مؤمنة**».

فما أيسرها من عقيدة، وما أسهله من دين، إنما صعبه المتعمقون والمتنطعون والمتحذلقون

فزدني يقيناً فيك حتى يردني

عن الشك والإشراك والغيِّ والهوى

ولما حج سليمان بن عبدالملك الخليفة، ومعه عمر بن عبدالعزيز نزل الغيث وصوت رعد قاصف، ولمع برق خاطف، فخاف الناس، فقال عمر بن عبدالعزيز: سبحان الله هذه آثار رحمته، فكيف بآثار عذابه ونقمته.

وذكر بعضهم في قصة توبة عمر بن عبدالعزيز أنه كان مع صديق له شاب في سِنِّه، فقال الصديق: هيا بنا نلهو، فسمعه أحد الصالحين فقال له: إن عليك عيناً بصيرة، ورقيباً لا يغفل، فدمعت عينا عمر بن عبدالعزيز.

وقد ذكر بعض العلماء أن أهل صنعاء أصابهم قحط شديد فخرج بهم أحد الصالحين من الطاعنين في السن فقبض على لحيته البيضاء، ونظر إلى السماء وبكى. وقال: يا رب قد شبت في الإسلام فارحم هذا الشيب وأغثنا، فنزل الغيث بإذنه سبحانه، وعلى ضد هذا ذكر صاحب كتاب سلوة الغريب وأسوة الأريب: أن أهل طبرستان خرجوا يستسقون فما فرغوا من دعائهم إلا والحريق مضطرم في أطراف البلد حتى قال الشاعر فيهم:

خرجوا يسألون صوب غمام
فأجيبوا بصيب من حريق
جاءهم ضد ما تمنوه فجاءت
قلوب محشوة بفسوق

وأعظم ما يزيد إيمان العبد بربه ويقينه بمولاه التفكر في آياته ومخلوقاته، وهذه طريقة القرآن في عرض المشاهد الكونية من سماء وأرض وجبال وأشجار وماء وهواء ونحو ذلك.

ولذلك لما سأل ضمام بن ثعلبة ـ رضي الله عنه ـ رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح قال: أسألك بمن بسط الأرض ورفع السماء، ونصب الجبال، آلله أرسلك إلينا رسولا؟

وهذه المخلوقات يرد التعريف بها في القرآن، لأنها ظاهرة باهرة دون الغوامض من المخلوقات التي قد تخفى على البعض، قال سبحانه: ﴿أَفَلَا

يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ وقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾.

وهناك دقائق من الاكتشافات في عالم الطب، وعالم الحيوان، وعالم النبات ذكرها كثير من الباحثين تخلب العقول، وتستوقف النفوس عند بديع صنع الله، وعجيب قدرته، والقرآن يشير إلى جمل من هذا وكليات يعلمها العامة والخاصة، ولا تخفى على أحد، حتى أن العجائز المؤمنات عندهن من الإيمان الصادق ما لا يحتاج معه إلى زيادة براهين لهن، كما ورد في أثر عن عمر ـ رضي الله عنه ـ في الموطأ وغيره: وكونوا على دين العجائز.

وقد ذكر الأصمعي: أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ قال: سبحان الله: من هذا الذي أحوج الجليل حتى يقسم. ومعناه: أن الأمر ظاهر لا يحتاج إلى قسم، لكن النفوس العنيدة، والعقول المكابرة تحتاج إلى مثل هذا، ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾.

وبعض الناس لو حدث عن غرائب من الخلق ما صدق حتى يشاهد بعينه، فيسوق الله لهم من غرائب المخلوقات، وعجائب الكائنات ما يبهر الألباب.

ففي صحيح البخاري: أن الله ساق للصحابة دابة من البحر تُدعى العنبر، وكانوا أكثر من ثلاثمئة رجل، فأكلوا منها شهراً كاملاً، وكانوا يغترفون من وقب عينها بالجرار الكبيرة، وجلس منهم ثلاثة عشر رجلاً في وقب عينه، وأخذ ضلعاً من أضلاعه فأقاموه ثم رحل رجل منهم على بعير فدخل به من تحت الضلع، وتزودوا من لحمه إلى المدينة، وأكل منه رسول الله ﷺ، فسبحان من خلق فأبدع.

وجاء في جريدة الأهرام في العدد ٢٤٤١٩ بتاريخ ٢٧ / ٩ / ١٩٥٢ بعنوان «حوت يونس»: اجتازت شوارع باريس أمس سيارة نقل طولها ٣٠ متراً، يقال: إنها أطول سيارة نقل في العالم، وكانت تقل؛ «يونس» وهو حوت ضخم، عمره ١٨ شهراً، وطوله ٢٠ متراً، ووزنه ٨٠٠٠ كيلو جرام، وقد حنطه أصحابه، وقاموا بعرضه على النظارة في النرويج والسويد والدانمارك... إلخ.

وقد أضيء باطنه بالمصابيح الكهربائية ليتسنى للنظارة رؤية جوفه.

انظر لما نقله أبو داود في السنن في كتاب الزكاة في آخر باب صدقة الزرع ٢: ١٤٦ قال أبو داود: شَبَرْتُ قثاءة بمصر ثلاثة عشر شبراً، ورأيت أُتْرُجَّةً على بعير بقطعتين، قطعت وصيرت على مثل عدلين.

وقال معمر بن راشد المحدث المشهور: رأيت باليمن عنقود عنب وقر بغل تام، ذكره الذهبي في ترجمة محمد بن رافع النيسابوري في تذكرة الحفاظ.

وفي كتاب الطالع السعيد قال مؤلفه: رأيت قطف عنب، جاءت زنته ثمانية أرطال بالليثي، ووزنت حبة عنب جاءت زنتها عشرة دراهم، وذلك بأدفو بلدنا.

وجاء في مجلة الفيصل السعودية عدد ٦٢ شعبان ١٤٠٢ ص١١٢ صورة لثمرة كرنب «ملفوف» وزنت ٢٢ كيلو غرام وبلغ قطرها متراً واحداً، وصورة لبصلة يابسة واحدة، وزنت ٣، ٢ كيلو غرام، وبلغ قطرها ٣٠ سم، وذكرت المجلة عقب ذلك أن ثمرة بندورة «طماطم» واحدة بلغ محيطها أكثر من ٦٠ سم، وأن هذه الأشياء غير العادية نبتت في أرض المزارع المكسيكي «جوزيه كارمن» ذي الخبرة الطويلة في الزراعة والعناية بالأرض مما جعله المُزارع الأول في المكسيك.

وذكر صاحب كتاب: صفحات من صبر العلماء عن الشيخ أحمد الزرقاء أنه شاهد رجلاً في السوق ينادي أنه يستطيع أن يمسك البرغوث بأصبعي يد، والشعرة بأصبعي يد، ويقلب يديه إلى الخلف وراء ظهره، ويعقد الشعرة على البرغوث، ثم يعيد يديه إلى الأمام، وفي إحداهما بين إصبعيه رأس الشعرة وفي أسفل الشعرة البرغوث مقيداً ينط، وكذلك يمكن أن يفكه هكذا.

فسبحان من علم الإنسان ما لم يعلم، بعد أن أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً.

من علم النملة أن
تشيد جحراً في التراب

من علم النحلة أن
تنسج بيتاً من لعاب

من علم العصفور أن
ينظم عشاً في الهضاب

ذاك هو الله الذي
أبدع في الخلق العجاب

ومن أعظم ما ردَّ به موسى عليه السلام على تهور فرعون وعجرفته لما سأل: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾؟ قال موسى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، فأسكته، فبهت العنيد الفاجر، وهذا جواب سديد، لا يدعي أحد من البشر مهما بلغ عتوه، أنه شارك الله تعالى في الخلق والهداية، ولا يزال العلم يخبرنا ببديع قدرة القدير، وجليل حكمة الحكيم إذ يقول صاحب كتاب: «الإنسان لا يقوم وحده»: والذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، بصر الهدهد برزقه لخفية في الأرض، فلما جاء لسليمان وذكر ربه قال: الذي

يخرج الخبأ في السموات والأرض. فهو يتذكَّر الإخفاء والخبأ، وإخراج الرزق ويعلم أن ربه هو العالم بذلك.

وقد ذكر صاحب كتب «الحيوان»: أن بعض أنواع الثعابين في الصحراء إذا جاعت ولم تجد أكلاً نصبت نفسها على هيئة العود القائم، فيظنها الغراب خشبة فيقع عليها فتأكله.

والذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى عرف الكائنات به، ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** ﴾.

فكل شيء خلق بحكمة، حتى الذباب والبرغوث والحية والعقرب، دخل أحد العلماء على الخليفة أبي جعفر المنصور، فأخذ الذباب يقع على أنف أبي جعفر فيطرده ويعود، فلما أضجره التفت إلى هذا العالم، وكان يتثاقله لأنه ينصحه، وقال: يا فلان لماذا خلق الله الذباب؟ قال: ليذل به أنوف الطغاة، يعرض بأبي جعفر، وهذا جواب سديد مُسْكِت.

وقد ذكر الدكتور البار بعد التحليل والدراسة: أن في أحد جناحي الذباب مادة سامة، وفي الآخر مادة نافعة تقضي على تلك المادة وتبطل مفعولها، يصدق ذلك ما ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه ثم لينزعه، فإن في إحدى جناحيه داءً والأخرى شفاءً**».

ومن بديع خلق الذباب كما قال أحد الأدباء: أن الذباب إذا وقع على البياض سوده، وعلى السواد بيضه، وعلى الجرح جدده، وعلى اللحم أنتنه، وعلى اللبن أفسده، ومع ذلك تحدّى الله البشرية بالذباب. فقال: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ** ﴾.

ومن بديع خلقه سبحانه ما ذكره بعض العلماء بحياة الحيوان: أن الله جعل للفرس من قوة النظر ما يبصر الطريق في الظلمة الشديدة، وجعل للبومة قوة بصر في الليل الأسود الدامس تبصر به الحشرات على العشب. وذكر كريسي مريسون: «أن الكلب مزود بأنف قوي الشم، حساس جداً، حتى يعرف بشمه الصديق من العدو، وصاحب البيت من غيره»، وهذا خلق من أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

يا من يرى مد البعوض جناحها
في ظلمة الليل البهيم الأليلِ

ويرى مناط عروقها في نحرها
والمخ في تلك العظام النحلِ

فجل في علاه من صور البعوضة وسلطها على الإنسان تأخذ رزقها من جسمه، وضرب بها الأمثال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**﴾؛ بل جعل للبعوضة على صغر حجمها من القدرة على أن تمص الدم من مقلة الأسد، سيد الحيوانات كما قال أحدهم: إن البعوضة تدمي مقلة الأسد. وفي خلق العنكبوت آية من أعظم الآيات: ﴿**كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾.

قال رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك: «إن إحدى العناكب المائية تصنع لنفسها عشاً على شكل منطاد (بالون) من خيوط العنكبوت وتعلقه بشيء ما تحت الماء، ثم تكسو ببراعة فقاعة هواء في شعر جسمها، وتحملها إلى الماء، ثم تطلقها تحت العش، ثم تكرر هذه العملية حتى ينتفخ العش، وعندئذ تلد صغارها وتربيهم آمنة عليهم من هبوب الرياح.

قال ابن القيم: فأما المفعولات فإنها دالة على الأفعال، والأفعال دالة على فاعل فعله، وذلك يستلزم وجوده وقدرته ومشيئته وعلمه لاستحالة صدور الفعل الاختياري من معدوم أو موجود لا قدرة له ولا حياة ولا علم ولا إرادة، ثم ما في المفعولات من التخصصات المتنوعة، دال على إرادة الفاعل وأن فعله ليس بالطبع بحيث يكون واحداً غير متكرر. وما فيها من المصالح والحكم والغايات المحمودة دال على حكمته تعالى.

وما فيها من النفع والإحسان والخير دال على رحمته، وما فيها من البطش والانتقام دال على غضبه، وما فيها من الإكرام والتقريب والعناية دالٌ على محبته، وما فيها من الإهانة والإبعاد والخذلان دال على بغضه ومقته، وما فيها من ابتداء الشيء في غاية النقص والضعف ثم سوقه إلى تمامه ونهايته دال على وقوع المعاد، وما فيها من أحوال النبات والحيوان وتصرف المياه دليل على إمكان المعاد، وما فيها من ظهور آثار الرحمة والنعمة على خلقه دليل على صحة النبوات، وما فيها من الكمالات التى لو عدمتها كانت ناقصة دليل على أن معطي تلك الكمالات أحق بها، فمفعولاته من أدل شيء على صفاته وصدق ما أخبرت به رسله عنه، فالمصنوعات شاهدة تصدق الآيات المسموعات، منبهة على الاستدلال بالآيات المصنوعات.

قال تعالى: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ أي أن القرآن حق. فأخبر أنه لابد أن يريهم من آياته المشهودة ما يبين لهم أن آياته المتلوة حق، ثم أخبر بكفاية شهادته على صحة خبره بما أقام من الدلائل والبراهين على صدق رسوله، فآياته شاهدة بصدقه، وهو شاهد بصدق رسوله بآياته، فهو الشاهد والمشهود له، وهو الدليل والمدلول عليه، فهو الدليل بنفسه على نفسه كما قال بعض العارفين:

كيف أطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء؟ فأي دليل طلبته عليه فوجوده أظهر منه.

ولهذا قال الرسل لقومهم: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ فهو أعرف من كل معروف، وأبين من كل دليل، فالأشياء عرفت به في الحقيقة وإن كان عرف بها في النظر والاستدلال بأفعاله وأحكامه عليه.

ومن آيات قدرته وعظيم حكمته ما ذكره بعض العارفين أن من أعز أنواع المعرفة معرفة الرب سبحانه بالجمال، وهي معرفة خواص الخلق، وكلهم عرفه بصفة من صفاته. وأتمهم معرفة من عرفه بكماله وجلاله وجماله سبحانه، ليس كمثله شيء في صفاته، ويكفي في جماله أنه لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحاته ما انتهى إليه بصره من خلقه. ويكفي في جماله أن كل جمال ظاهر وباطن في الدنيا والآخرة فمن آثار صنعته، فما الظن بمن صدر عنه هذا الجمال.

ويكفي في جماله أنه له العزة جميعاً والقوة جميعاً، والجود كله والإحسان كله، والعلم كله والفضل كله، ولنور وجهه أشرقت الظلمات.

وقال عبدالله بن مسعود: ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السموات والأرض من نور وجهه، فهو سبحانه نور السموات والأرض، ويوم القيامة إذا جاء لفصل القضاء تشرق الأرض بنوره.

ومن أسمائه الحسنى «**الجميل**» وفي الصحيح عنه ﷺ: «**إن الله جميل يحب الجمال**».

وجماله سبحانه على أربع مراتب: جمال الذات، وجمال الصفات، وجمال الأفعال، وجمال الأسماء.

وقدرة الله في الخلق فوق ما يصفها الواصفون، فهو يجعل من الشيء الواحد نفعاً وضراً، إذا غير أوصافه وبدّل خصائصه.

فمثلاً الرياح يجعلها الله برحمته رخاءً ونسيماً عليلاً، تلقح السحاب فينهمر الغيث، وتلقح الثمر فيأتي بأحسن الطعوم، وتبرد الجو، وتنعش الروح، وتسوق الغمام بإذن الملك العلام، وينزع الله منها إذا شاء الرحمة فتصير ريحاً لا تطاق، تدمر البيوت، وتكسر الأشجار، وتنقل الأمراض، وتهلك الحرث والنسل، وتفسد الجو.

والماء يجعل الله رحمته فيه ويجعل منه كل شيء حياً، فلا تصلح الحياة إلا بالماء شرباً، وغسلاً وسقياً، فإذا هو أغلى مفقود، وأرخص موجود، بارد على النفس، عذب في شربه، زلالٌ في تناوله، يحيي به العباد والبلاد، ويدر به الضرع، وينبت به الزرع، فإذا النماء والخضرة والري والحياة.

وينزع الله منه الرحمة فإذا هو سيل مدمر، وطوفان مزمجر، يقتلع السدود، ويهدم الجسور، ويهد البيوت، ويخرب الديار، ويغرق الأنفس، وينسف الممتلكات، وربما كان مالحاً لا يطاق، فلا ينتفع به ولا يستساغ؛ لحكم بالغة، ومقاصد جليلة.

وعلى ذلك فَقِس في كل النعم والمواهب من مال وأهل وبنين وزوجة ومنصب وجاه ونحو ذلك، يجعلها الله إما نعمة، وإما نقمة؛ إثباتاً لقدرته، ودليلاً على حكمته، وبرهاناً على نفاذ أمره جل في علاه.

قل للطبيب تخطفته يد الردى

من يا طبيب بطبه أرداكا

قل للمريض نجا وعوفي بعد ما

عجزت فنون الطب من عافاكا

وإذا ترى الثعبان ينفث سمه

فاسأله من ذا بالسموم حشاكا

واسأله كيف تعيش يا ثعبان

أو تحيا وهذا السم يملأ فاكا

يقول بعض الحكماء: إذا لم تسبح الكائنات بلسان المقال فقد سبحت بلسان الحال، وإذا لم تنطق الحروف باللسان فقد أظهرت الشكر بالإذعان، وإن لم تخبرنا بما فعلت فقد اطلع سبحانه على ما أكنت وأضمرت، إن الكائنات تسبح بلسان الحال، والمقال، وبكيفية الله أعلم بها فقد ورد القرآن بذلك، فقال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

وفي كتاب: «الله والعلم الحديث» يذكر الفلكيون: أن هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة بلايين نجم ما يمكن رؤيته بالعين المجردة، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة، وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه، هذه كلها تسبح في الفلك الغامض، ولا يوجد أي احتمال أن يقترب مجال مغناطيسي لنجم من مجال نجم آخر، إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بآخر في المحيط الهادي، يسيران في اتجاه واحد وبسرعة واحدة، وهو احتمال بعيد، وبعيد جداً، إن لم يكن مستحيلاً.

فهذا هو الخلق البديع المتناسق العجيب الذي يدهش الناظرين بعظمته وتناسبه، فكل شيء بحساب.

ولذا جاء القرآن بالإجابة الشافية الكافية عن كل حدث ومخلوق.

فالشمس تجري لمستقر لها، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم، والنجوم مصابيح للسماء ورجوماً للشياطين، وهداية للمسافرين، والجبال رواسي لئلا تميد بنا الأرض، والرياح لواقح، والماء حياة كل شيء، والأنعام خلقها لنا دفء ومنها نأكل، وعليها وعلى الفلك تحملون.

ويبقى القرآن يذكرنا بعظيم القدرة، وجلال الحكمة، وكثير النعمة، فهل من مؤمن موحد شاكر لله رب العالمين؟!

وقد ذكر في كتاب روضة المحبين أن شيخ الإسلام ابن تيمية كان يخرج للتفكر في آيات الله خارج دمشق فيخلو بنفسه، يتدبر ويتأمل ثم ينشد:

وأخـــرج من بيت البـــيـــوت لعلني

أحـــدِّث عنك النفس بالســـر خـــاليـــا

وذلك لأن المتفكر وحده يجد من الأنس والهدوء وسعة التدبر ما لا يجده مع الناس.

وفي الصحيح: أن من السبعة الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا يظل إلا ظله: «**رجلاً ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**».

والخلوة في التفكر سبيل إلى الإخلاص، وتجريد القصد وصحة النية، والله يقول: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ**﴾.

تقول مجلة العلوم الإنجليزية: إن يد الإنسان في مقدمة العجائب الطبيعية الفذة، وإنه من الصعب جداً ـ بل من المستحيل ـ أن تبتكر آلة تضارع اليد البشرية من حيث البساطة والقدرة وسرعة التكيف، فحينما تريد قراءة

كتاب تتناوله بيدك، ثم تثبته في الوضع الملائم للقراءة، وهذه اليد هي التي تصحح وضعه تلقائياً، وحينما تقلب إحدى صفحاته تضع أصابعك تحت الورقة، وتضغط عليها بالدرجة التي تقلب بها، ثم يزول الضغط بقلب الورقة، واليد تمسك القلم وتكتب به، وتستعمل كافة الآلات التي تلزم الإنسان من ملعقة إلى سكين إلى آلة كاتبة، وتفتح النوافذ وتغلقها، وتحمل كل ما يريده الإنسان، واليدان تشتملان على سبعة وعشرين عظماً وتسع عشرة مجموعة من العضلات لكل منها وظيفتة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ لفتة عجيبة إلى هذا الكائن الحي، كيف خلق وركب وصور وأبدع خلقه، فلماذا لا ننظر في أنفسنا، وفي عيوننا وأسماعنا، في ألسنتنا وعقولنا، في أيدينا وأرجلنا، في كل عضو ، وكل ذرة، وكل قطرة، وكل شعرة، في خلقنا لنزداد إيماناً ويقيناً.

وتأمل كيف ضمن الله لكل مخلوق رزقه في البر والبحر، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ وقد جعل الله لكل كائن ما يناسبه من الغذاء، فسهل للجنين في بطن أمه عرقاً يغذي جسمه، فلما وضعته أمه جعل الله غذاءه اللبن في ثدييها فدرّ بإذن الله، وهدى الطفل لالتقامه ومصه بحكمة بالغة، وقدرة نافذة.

وضمن للدودة رزقها وهي داخل الطين، ويسر للنملة غذاءها، وألهمها نقله وإخفاءه في جحور الأرض وادخاره في الصيف إلى الشتاء، فإذا خشيت النملة أن تنبت الحبة قسمتها نصفين.

ويسر للحوت رزقه في الماء، وسهل له هواء يتنفسه هناك.

وأنبت في الشجر داخل المياه ما يناسب الحيوان المائي، فسبحان الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وصح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً**».

فما شق الله من فم إلا ضمن له رزقه، وما خلق من نفس منفوسة إلا تكفل بغذائها وسقائها، ولن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها.

ولقد علمت وخير العلم أصدقه

أن الذي خلق الأرزاق يكفيني

أسعى إليه فيعييني تطلّبه

وإن قعدت بإذن الله يأتيني

أفبعد هذا الإبداع في الخلق والجمال في الكون يلحد عقل؟ أو تكفر نفس؟ أو يشك إنسان؟ ويقال لكل أذن سميعة وعت الحجج والبراهين أفي الله شك؟ ويقال لكل عين بصيرة شاهدت الأدلة الدالة على وحدانية اللطيف الخبير أفي الله شك؟ ويقال لكل قلب ذكي عرف الحقائق وذاق المعارف أفي الله شك؟!

وأما علماء الذرة، ورواد الفضاء، والمبرزون في الطب والتشريح والنبات والطبيعة وشتى الاختصاصات فقد أثبتوا وجود الله، وهدادهم العلم إلى أن لهذا الكون قوة تضبطه، وحاجة الناس إلى العقيدة تبدو في كونها ضماناً لأصحاب الأخلاق لينالوا السعادة في العاجل والآجل.

ولهذا قال ابن حزم: ثق بالمتدين ولو كان على غير دينك.

وقال الشيخ مصطفى صبري: الله موجود سواء أصلحت أخلاق المجتمع أم فسدت، وسواء أسعد أصحاب الفضيلة أم شقوا.

قال المقري صاحب كتاب نفح الطيب:

سبحان من قسم الحظوظ
فلا عتاب ولا ملامة
أعمى وأعشى ثم ذو
بصر وزرقاء اليمامة
ومسدد أو جائر
أو حائر يشكو ظلامه
لولا استقامة من هداه
لما تبينت العلامة

ولما تكلم الكاتب الزيات في مجلة الرسالة عن الشيوعية الملحدة وإنكارها لوجود الباري قال: لكنها الشيوعية الخاسرة، أرض بلا سماء، ويوم بلا غد، وعمل بلا خاتمة، وسعي بلا نتيجة، أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

إن العلم يدعو للإيمان، وقد ألف في هذا العنوان جماعة من الأمريكان، واستعرضوا الاختراعات والاكتشافات التي تدعو العقل للتدبر، وتعرض على الإنسان براهين قدرة الباري جل في علاه ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾.

واعلم أن سلفنا الصالح يعرضون التوحيد في دعوتهم ومواعظهم ودروسهم عرضا سهلاً ميسراً، مبتعدين عن تشقيق الكلام، وترصيص الألفاظ، وتعقيد العبارات، اسمع للشيخ المجدد محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ وهو يبسط المعتقد للناس إذ يقول: إذا قيل لك: من ربك؟ فقل: ربي الله، فإذا قيل لك: إيش معنى الرب؟ فقل: المعبود، المالك، المتصرف.

فإذا قيل لك: إيش أكبر ما ترى من مخلوقاته؟ فقل: السموات والأرض، فإذا قيل لك: إيش تعرفه به؟ فقل: أعرفه بآياته، ومخلوقاته.

وإذا قيل لك: إيش أعظم ما ترى من آياته؟ فقل: الليل، والنهار، والدليل على ذلك، قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

فإذا قيل لك: إيش معنى الله؟ فقل: معناه: ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين.

فإذا قيل لك: لأي شيء الله خلقك؟ فقل: لعبادته.

فإذا قيل لك: إيش عبادته؟ توحيده، وطاعته.

فإذا قيل لك: إيش الدليل على ذلك؟ فقل: قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾.

وهذا منهج القرآن، فإنه يعرض على الناس الحق، ويدعوهم إلى الإيمان بالخالق بسهولة ووضوح، خلافاً لمناهج المبتدعة الضلال، فإنهم أحدثوا في الملة كلاماً ما أنزل الله به من سلطان، مثل الجوهر والعرض والحيز والحد ونحو ذلك من الكلام العقيم الذي لا ينفع العبد في إيمانه ولا علمه، وما كانت دعوته ﷺ إلا سمحة سهلة ميسرة، كان يقول: «**أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا**».

ولما أرسل معاذاً ـ رضي الله عنه ـ إلى اليمن قال له: «**إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك، فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا**

صلوا، فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاةً في أموالهم، تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم، فإذا أقروا بذلك، فخذ منهم وتوقَ كرائم أموالهم».

ويقول ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله».**

ثم أعلم أن العبد يمر به كل يوم وليلة من النعم والمصائب والأزمات ما يجب عليه في جميعها العودة لربه شاكراً لنعمه، صابراً على قضائه، راجياً مولاه، فإنه لا يجيب المضطر غيره، ولا يكشف الكرب سواه.

فما يكابر الحقيقة إلا سفيه، ولا يرد الحق إلا معتوه، ولا ينكر البرهان إلا مغفل، فحيثما يممت وجهك وجدت آية ناطقة أو صامتة، تحدث عن حكمته ورحمته وقدرته وإبداعه، الليل يقبل جاهم المحيا، عابس الوجه، مكدر الخاطر، أسود الجلباب، هاجماً على الدنيا، آية من آيات جلاله تقدس في علاه.

والنهار يقدم باسم الثغرة، مشرق الجبين، حسن الصورة، مضيء الوجه، منوار الطلعة، يملأ كل زاوية نوراً، ويغمر كل محلة شعاعاً، آية من آيات ربنا الملك القدوس.

الشمس تفجأ العالم بحسنها وروعتها، وضيائها، فتكشف ركام الظلام، وتجتاح جحافل الليل، وتهمي بأشعتها على الوجوه والعيون والأوراق والورود والخمائل، آية على بديع صنع اللطيف الخبير.

القمر بهالته الفضية، وطلعته الرضية، في هيبته وصمته، في سكون مشيه، وارتفاع محله، وسمو مكانه، وجمال منظره، آية لكل ذي عقل على حسن خلق أحسن الخالقين.

الجبال رافعة رؤوسها، مثبتة أقدامها، ساكتة في عظمة، مرتفعة في عنفوان، جاثمة في قوة، آية على تفرده ووحدانيته.

البحر المخيف وهو متلاطم الأمواج، مزمجر الصوت، يبتلع الأحياء، يكاد يلتهم الأرض، آية على عظمة خالقه جل في علاه.

في صهيل الفرس، وخوار البقر، وثغاء الغنم، وزئير الأسد، ونباح الكلب، ونهيق الحمار، وهديل الحمام، وسجع القُمري، وعندلة العندليب، ونعيق الغراب، وفحيح الحية، ونقنقة الضفدع، وخرير الماء، وهزيز الريح، وهزيم الرعد، وحفيف الشجر، وطنين الذباب، وأطيط الناقة، ودوي النحل، وتغريد الحادي، وترنيم المنشد، في كل هذا وفي غيره آيات بينات على جميل خلقه، وعظيم قدرته، وحسن تصويره، فتبارك الله أحسن الخالقين.

في اختلاف الطعوم، والأذواق، والروائح، والألوان.

في تباين العلوم، والفهوم، والصفات، والمواهب.

في تعدد المقاصد والمكاسب، والأعمال والاهتمامات.

في هذه كلها وفيها جميعاً آية من آيات حكمته وقدرته وخلقه تعالى.

في الصوت والصورة، في الشكل والمضمون، في القلب والقالب، في المعنى واللفظ، في الإشارة والعبارة، في المادة والروح، في العرض والجوهر، في الذات والصفات، في الحقيقة والخيال، في الرؤيا واليقظة براهين دالة على حكيم صنع رب العالمين.

في الفم يبتسم، في العين ترى، في الأذن تسمع، في اليد تبطش، في الرجل تمشي، في العقل يفكر. في القلب يعتقد، في الجلد يحس، دليل على إبداع الواحد الجليل.

في السماء والأرض، والليل والنهار، والجبل والسهل، والحجر والمدر، والأخضر واليابس، والأبيض والأسود، واللين والقاسي، والحي والميت، والكبير والصغير، آية على عظمة اللطيف الخبير.

﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾

كل يوم هو في شأن: يغني فقيراً، ويجبر كسيراً، ويشافي مريضاً، ويعافي مبتلى، ويهدي ضالاً، ويرد غائباً، ويتوب على تائب، ويغفر لمستغفر، ويستر على مذنب، ويتجاوز عن مسيء.

كل يوم هو في شأن: ينصر مظلوماً، ويغيث ملهوفاً، ويجيب داعياً، ويعطي سائلاً، ويفرج كربًا، ويكشف سوءًا، ويزيل همّاً، ويذهب غمّاً، ويزيلُ حزناً.

كل يوم هو في شأن: يقصم جبَّاراً، ويردع ظالماً، ويقمع متكبراً، ويخزي ملحداً، ويهزم عدواً، ويمحق كيداً، ويكبت طاغية، ويرد جانياً، ويكسر جيشاً، ويفني قوماً.

كل يوم هو في شأن: يخلق خلقاً، ويهب رزقاً، وينشئ سحاباً، وينزل غيثاً، ويرسل رياحاً، ويطعم جائعاً، ويسقي ظمآناً، ويكسي عرياناً، ويؤوي شريداً.

كل يوم هو في شأن: يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، يؤتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويرزق من يشاء بغير حساب.

كل يوم هو في شأن: يفلق الإصباح، ويدبر الفلك، ويسخر الشمس والقمر، ويمسك السماء والأرض، ويسكّن البحر، ويرسي الجبال، وينشئ البرق والرعد.

كل يوم هو في شأن: يعلم الجاهل، ويرفع الخامل، وينبه الغافل، ويذكر الناسي، ويصور في الأرحام، ويهدي في الظلمات، ويحفظ من المهالك، وينقذ من المتالف.

كل يوم هو في شأن: يحيي نفساً، ويقبض أخرى، ويسعد ويشقي، ويضحك ويبكي، ويسر ويحزن، ويهب ويأخذ، ويقوي ويضعف، ويقرب ويبعد، يخفض ويرفع، ويقبض ويبسط، ويعطي ويمنع.

كل يوم هو في شأن: يكتب حسنة وسيئة، ويقدر نعمة ونقمة، ويقضي عذاباً ورحمة، يوفق ويخذل، ويكرم ويهين، ويعمي ويصم، وينشئ ويعيد، وهو اللطيف الخبير.

كل يوم هو في شأن: لا تقع قطرة، ولا تسقط ورقة، ولا تقال كلمة، ولا تطلق نظرة، ولا يخط حرفٌ، ولا تمشى خطوة، ولا تسكب دمعة، ولا تهمس همسة، إلا بعلمه وهو العليم الخبير.

كل يوم هو في شأن: يعلم السرائر، ويطلع على الضمائر، يكشف الخوافي، يحيط بالأمور، يفعل ما يشاء، يحكم ما يريد، لا غالب لحكمه، ولا راد لقضائه، لا منجى وملتجأ منه إلا إليه.

كل يوم هو في شأن: عنده علم الليالي والأيام، والزمان والمكان ، والإنس والجان، والنبات والحيوان، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.